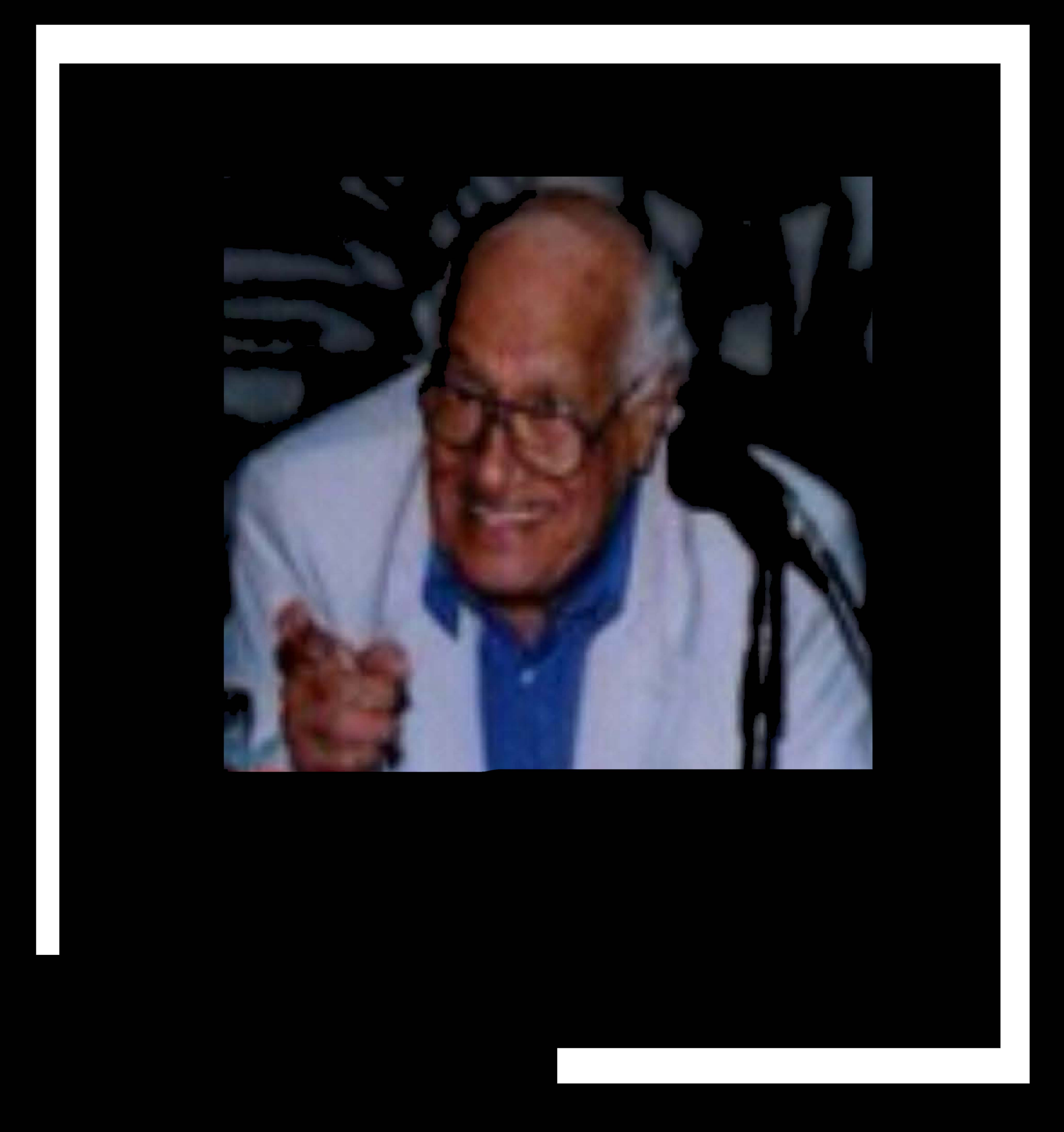
سليمان الحكيم

إعترافات ..

شيخ الشيوعيين العرب

محمود أمين العالم



مكتبة مدبولي

الكتاب : اعترافات شيخ الشيوعيين
محمود أمين العالم
التأليف : سليمان الحكيم
الطبعة : الأولى عام ٢٠٠٦
الناشر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ – فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
البريد الإلكترونى : www.madboulybooks.com
Info@madboulybooks.com
الإخراج والتنفيذ : مكتب النصر للجمع التصويرى
الترقيم القاهرة – تليفون ٧٨٦٣١٩٩
رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١١١٢١
الدولى : 977-208-540-2

سليمان الحكيم

اعترافات شيخ الشيوعيين
محمود أمين العالم

الناشر
مكتبة مدبولي
2006

مقدمة

حققت اعترافات شيخ الشيوعيين العرب الأستاذ محمود أمين العالم نجاحًا كبيرًا انعكس فى هذا الكم من الخطابات التى جاءت تحمل تعليقات القراء على ما ورد فيها من أسرار . ورغم أنه اعترض على وصفه بأنه شيخ الشيوعيين العرب لكن صديقنا سليمان الحكيم أصر على هذه التسمية بتأييد من سليم عزوز . وأظن أن اعتراض محمود أمين العالم على وصفه بأنه شيخ الشيوعيين العرب يأتى من منطلق التواضع الذى يتحلى به . وهو قادر على أن يأسرك بتواضعه وبابتسامته الآسرة مهما كان حجم اختلافك معه .

وقد عرفته - قبل أن ألقاه - من خلال حديث الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى عنه وإشادته به . وعندما عرفته بعد ذلك - يوم كان رئيسًا لمجلس إدارة أخبار اليوم - لمست تواضعه وجذبتنى ابتسامته . لكننى لم أستطع أبدًا أن أفهم ما يقوله . وأشهد أنه عميق الثقافة حاد الذكاء ممتلىء بالحيوية والنشاط . لكنه أيضًا غير مفهوم لأمثالى من غير القادرين على فهم الفلسفة الماركسية أو التجاوب معها . ونستطيع أن نضيف إلى مزاياه العديدة شجاعة نادرة تتجلى فى اعترافه بأنه شيوعى يتمسك بشيوعيته . وكنت أظن أن الشيوعية قد ماتت بالسكتة القلبية فى موسكو والمناطق المتاخمة لها . وصور لنا الغرور أن الذين يتمسكون بالشيوعية الآن قد أصابهم البلاء . وأن عليهم أن يستتروا .. وإذا بُليتم فاستتروا . لكن شجاعة صاحب الاعترافات كانت واضحة فى حديثه الصريح وفى اعترافه بتمسكه بالشيوعية .

ولا يختلف أحد حول أن محمود أمين العالم مفكر وكاتب وأديب . لكننى أزعم أنه لم يكن أبدًا صحفيًا محترفًا . وهذا هو موضع الخلاف بينى وبين كثيرين من أصدقاء العالم ومريديه . وعندما وجدناه على رأس مؤسسة صحفية كبرى تملكنا التشاؤم باعتبار أن الصحافة فن ومهنة وصناعة لا يجيدها سوى أصحابها . وقد رسخ فى وجداننا على مدى الأيام أن مهنة الصحافة لا تروج إلا فى جو من الحرية وأن الفن الصحفى بطبيعته لا يوجد إلا فى جو من الليبرالية والتعددية الحزبية . وأن نظام الحزب الواحد الذى يؤمن به الشيوعيون لا يصلح مع الصحافة ولا تصلح معه الصحافة . وهذا سر فشل الشيوعيين الذين حاولوا تعاطى الصحافة فى مصر .

وتأكد ذلك من خلال التجربة السوفيتية . لقد نجح السوفيت فى صنع القنبلة الذرية ، وكانوا أول من انطلق إلى الفضاء لكنهم أبدًا لم ينجحوا فى إصدار صحيفة واحدة ناجحة . وقد وجدنا صحيفة « الأحرار » تتسع لما يقوله الشيوعيون - ومنهم شيخهم العالم . واستمتعنا بما قاله الذين يختلفون معنا فى الرأى . وبقى أن نستمتع بالحلقات التى نشرتها « لأحرار » من خلال كتاب يضم كل اعترافاته .

وحدثنى الدكتور أسامة الباز عن إعجابه بهذه الحلقات ، وحملنى رسالة إلى كاتبها - الصديق سليمان الحكيم - يقترح فيها إصدار الحلقات فى كتاب . وأظنه سيفعل .

مع أصدق تمنياتنا بنجاح هذا الكتاب رغم اختلافنا مع صاحبه ومعتقداته .

الدكتور صلاح قبضايا

رئيس تحرير « الأحرار »

احترامًا للقارئ وحرصًا على الحقيقة

أما وقد انتهى نشر مذكراتي أو اعترافاتي - كما تفضلتم بتسميتها - في جريدتكم «الأحرار» فاسمحوا لي أولاً أن أشكركم على تفضلكم بنشرها رغم اختلافكم معي في الرأى على حين رفض نشرها من هم أقرب إليها منكم رأيًا ؟! أتطلع أن يسود هذا النموذج السمح الديمقراطي في بلادنا مما يتيح المزيد من تفتح الحوار المجتمعي واحترام الاختلاف وتعميق حرية الرأى والاجتهاد والتعبير والإبداع في بلادنا .

واسمحوالي ثانيًا أن أشكركم شخصيًا على ما أسبغتم على شخصى في «بقلم رئيس التحرير »[١] من كلمات كريمة أرجو أن أكون أهلاً لها . وأنا أعترف معكم أنني لست صحفيًا محترفًا كما ذكرتم في كلمتكم بالمعنى الذى تتبناه أيها العزيز صلاح فالصحافة عندى ليست مجرد مهنة وصناعة بل هي أساسًا مهمة ورسالة وإن كان لابد لها من الفن كذلك . ولهذا يشرفني بهذا المعنى أن أكون وقد كنت صحفيًا بل جورنالجيًا على حد تعبير الأستاذ محمد حسنين هيكل . وما أعتقد أن خبرتى المتواضعة في روز اليوسف وفى المصور والهلال وأخبار اليوم واليسار العربى (فى باريس) كانت سلبية على إطلاقها كما صورتها وفضلاً عن هذا فإن التجربة الاشتراكية الشيوعية أيها العزيز صلاح لا تعنى بالضرورة نفى حرية الصحافة والتعددية الفكرية والحزبية كما جاء في كلمتكم والتجربة السوفيتية ليست هي النموذج الاشتراكي أو الشيوعي بألف لام التعريف والعهد والإطلاق كما يقال وإنما هي نموذج محدد مبكر في موضع وملابسات خاصة ثبت فشلها لأسباب وعوامل عديدة لا مجال للخوض فيها هنا دون أن يعنى هذا فشل الحلم أو الرؤية أو المشروع الاشتراكي أو الشيوعي عامة . واسمحوا لي ثالثًا أن أشكر كذلك الزميل العزيز والصحفي المتميز سليمان الحكيم على تكبده مشقة الصياغة الرفيعة لحديثي معه الذى كان بعضه يتم تسجيلاً وبعضه حديثًا منطلقًا بغير تسجيل ولعل هذا ما أفضى إلى بعض التجاوز في جوانب من الحديث المنشور . وهذا ما دفعني إلى أن أضمن رسالة الشكر مني تدقيقًا لبعض ما جاء في الحديث فهذا ما يقتضيه احترامنا للقارئ وحرصنا على الحقيقة :

(١) إشارة إلى مقال صلاح قبضايا السابق في جريدة « الأحرار » .

– فى محاكمة الإسكندرية دافعت بالفعل عن الزملاء جميعًا وعن موقفنا الوطنى الديمقراطى الذى كان وراء اختلافنا مع الرئيس جمال عبد الناصر كما جاء بالفعل فى الحلقة السادسة من الحديث ولكنى فى الحقيقة لم أعترف فى هذه المحاكمة بعضويتى فى الحزب الشيوعى أمام المحكمة كما جاء فى هذه الحلقة على لسانى وإنما اعترف آخرون بهذه العضوية وكان هناك اتفاق بيننا على ذلك .

– عندما اتصل بى بعض ضباط الجيش عن طريق أحد الصحفيين للمشاركة فى انقلاب على النظام لم يكن فى هذا الاتصال دعوة لى لكى أكون قائدًا سياسيًا أو مستشارًا لهذا الانقلاب كما جاء فى الحلقة السادسة أيضًا .

– لم يتصل بى الدكتور ثروت عكاشة كما جاء فى الحلقة الثامنة لأقوم بالإشراف على مجلة الكاتب العربى وإنما لأشرف على هيئة الكتاب ثم لأتولى بعد ذلك مسئولية الشركة القومية للنشر التى حولت اسمها إلى شركة « الكاتب العربى » .

– لم أصدر الأعمال الكاملة لـ « يوسف إدريس » ولا لغيره من كبار كتابنا .. حين كنت مسئولاً عن شركة الكاتب العربى كما جاء فى الحلقة الثامنة وإنما تعاقدت معهم فحسب على إصدار أعمالهم الكاملة ، ثم سرعان ما انتقلت إلى هيئة المسرح .. ولا أدرى ماذا تم فى هذه التعاقدات أعتقد أنها لم تنجز !

– حاشاى أن أعتبر توفيق الحكيم وسعد الدين وهبة من كتاب اليمين كما جاء على لسانى فى الحلقة التاسعة .

– لم يكن الأمر فيما يتعلق بقتل جمال عبد الناصر – كما جاء على لسانى فى الحلقة التاسعة – وإنما ذكرت أنه قتل أو تعرض لإهمال شديد أفضى إلى موته .. وذكرت بعض مظاهر هذا الإهمال الشديد . وهذا ما اقتنعت به من حديثى مع د . حمدى السيد الذى ذهبت إلى لقائه فى عيادته لا فى بيته كما جاء فى هذه الحلقة ولم يكن وجهه أصفر – كما قيل على لسانى – وفى غاية الارتباك والفزع وإنما كان فى قمة الغضب والحزن .

– لم أكتب البيان الذى صدر رسميًا بعد وفاة جمال عبد الناصر كما جاء فى الحلقة السادسة وإنما كتبت ثلاثة بيانات أحدها موجه إلى الشعب المصرى وآخر للأمة العربية والثالث للعالم على أمل إصدارها ولكن لم يتم ذلك .

– لم يبلغنى وزير الثقافة بعد حديث تليفزيونى لى فى مساء اليوم السابق بإقالتى من الإشراف على مجلة «الطليعة» كما جاء فى الحلقة العاشرة وإنما إقالتى من مؤسسة المسرح .

– لا حاجة إلى الإشارة إلى المانشتات التى رافقت متن الحديث إذ كانت فى أغلبها تتسم بالمغالاة الشديدة وتتجاوز ما جاء على لسانى فى متن الحديث مما أزعجنى كثيرًا .

هذه بعض الملاحظات الأساسية على ما تم نشره وهناك بعض الملاحظات التفصيلية من الدكتور أسامة نظرًا لمتابعته للحلقات واقتراحه بنشرها فى كتاب ومع ترحيبى بذلك .

وختامًا لكم منى كل تقدير ومودة .

محمود أمين العالم

ألقاب كثيرة أطلقها عليه أصدقاؤه .. وتلاميذه ومريدوه فهو «العميد» وهو «العمدة» وهو «المعلم» وهو «العالم» ولا شك فى جدارته بكل تلك الألقاب التى حصل عليها عبر مسيرة طويلة من النضال ، بطول عمره المديد ، حمل فيها تاريخًا مليئًا بالتجارب ، وغنيًا بالخبرات على كاهله وفى رأسه وفى يده كانت مفاتيح المحراب الأحمر الذى يعرف دهاليزه وممراته وسراديبه السرية .. والسحرية . وفى هذه الحلقات ، يفتح لنا «العالم» خزائن أسراره ، ليخرج لنا منها ما لم يخرجه أمام كل المحققين الذين واجهوه وواجههم فى قضايا تتعلق « بالأمن » ولكن أيًا منها لم يكن يتعلق « بالأمانة »!

فقد كان « العالم » طوال تاريخه – الأمين مع نفسه ، ومع غيره .. وأن رآه خصومه – ودائمًا – غير مأمون ..!!

سليمان الحكيم

« 1 »

فى اليوم الثامن عشر من شهر فبراير عام ١٩٢٢ ولدت فى حارة الكحكيين بحى الدرب الأحمر - أكثر أحياء القاهرة القديمة شعبية ولعله أكثرها شهرة أيضًا .. وكشأن كل أبناء جيلى فى ذلك الوقت التحقت بكتاب الشيخ السعدنى لأتلقى فيه مبادىء القراءة والكتابة قبل أن أنتقل إلى المدارس الرسمية .

ولا أذكر أننى غادرت سكنى هذا الحى العريق بشوارعه المعروفة قبل أن أبلغ الثلاثين من عمرى فطبعنى بطابعه حتى بعد أن انتقلت منه إلى أحياء أخرى أكثر رقيًا من أحياء القاهرة المعروفة .

وكانت آيات القرآن الكريم هى أول ما وقعت عليه عيناى من كلمات مخطوطة فى كتاب .. ومازلت أذكر الشيخ السعدنى بوجهه المتجهم وعصاته الطويلة التى لم نرها عاجزة عن الوصول إلى أى تلميذ فشل فى الحصول على رضا مولانا فى حفظ آيات الذكر الحكيم .

ولما انتهيت من كتاب الشيخ السعدنى التحقت بمدرسة الرضوانية الأولية بالقربية وهو جزء من حى الدرب الأحمر كانت تصنع فيه قرب الماء التى كان يستخدمها السقاءون فى ذلك العهد .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى مدرسة النحاسين الابتدائية وهى على مقربة من جامع الحسين ، وقد علمت بعد ذلك أن جمال عبد الناصر كان معى بنفس المدرسة وإن كان يسبقنى بعامين

وربما لهذا لم التق به .. وربما التقينا ولكنى لم أعرفه . المهم أنها كانت مدرسة بمصروفات ، كان والدى يعجز دائمًا عن توفيرها فى بداية كل عام فيلجأ للاقتراض من بعض أصدقائه لأتمكن من مواصلة دراستى .

وبعد حصولى على الشهادة الابتدائية التحقت بمدرسة الاسماعيلية الثانوية بميدان السيدة زينب ، كان ذلك فى عام ١٩٣٥ الذى شهد أحداثًا سياسية عاصفة بسبب إلغاء دستور ١٩٣٠ ، ثم انتقلت إلى مدرسة الحلمية الثانوية التى حصلت منها على شهادة البكالوريا التى تسبق الالتحاق بالجامعة .

على الدرب « الأحمر »!!

وقد لعب الحى الذى نشأت فيه - حى الدرب الأحمر - الدور الرئيسى فى تكوينى .. ولا يعنى ذلك أننى أنا الذى اسميته الدرب الأحمر ، فقد كان ذلك هو اسمه قبل أن أولد فيه وقبل أن أختار الماركسية منهجًا لحياتى كلها .. ولكننى تطبعت بذلك الطابع الشعبى الذى يميزه .. ففيه قضيت الثلاثين عامًا الأولى من عمرى تجولت فى كل حواريه وأزقته ، وعرفت كل أثاره ، وصليت فى كل مساجده .. ومارست عاداته وتقاليده وتشربتها .. ومن أحد منازله كنت أنطلق مع رفاقى إلى جبل الدراسة القريب ولندخل فى معارك مع أبناء الأحياء الأخرى بالطوب والمقاليع والنبابيت ، ومازلت أذكر نشيدنا الوطنى الذى كان يردده أبناء حارتنا قبل المعارك عادة لإشعال الحماسة فى نفوس مقاتلينا ، وإدخال الرعب فى نفوس الخصوم من معسكرات «العدو» فكنا نردد : «احنا بتوع الباطنية .. واللى يعادينا مين »؟!

ومنطقة الباطنية كانت وأظنها لا تزال - مشهورة بتجارة الحشيش .. وما أكثر ما كنت أشاهد آنذاك عمليات بيع الحشيش التى كانت تجرى على الملأ فى ميدانها الصغير ..!!

وبينما كنت أستعد لدخول السنة الثالثة بمدرسة النحاسين الابتدائية . عجز والدى عن تدبير المبلغ اللازم لمصروفات المدرسة ، فصدر قرار بفصلى ومكثت فى البيت فأخذتنى أمى إلى الشيخ منير الدمشقى صاحب المطبعة المنيرية الشهيرة لأتعلم صنعة بدلاً من البطالة ومكوثى فى البيت بلا عمل ، وفى بضعة أسابيع تعلمت طريقة صف الحروف التى كانت مصنوعة من الرصاص فى ذلك الوقت وبدأت أضع قدمى على أول الطريق كعامل مطبعة رغم ضياع كثير من الوقت الذى كنت أقضيه فى أحضار الشاى وشراء السجائر وإعداد الطعام لعمال المطبعة من الأسطوات الذين سبقونى إلى العمل فيها ..!!

ولكن سرعان ما وصلنا خطاب رسمى من إدارة المدرسة يدعونى للعودة إليها معفيًا من دفع المصروفات بعد أن قرر جلالة الملك فؤاد الأول منح المجانية للمتفوقين بالمدارس اثر شفائه من المرض الذى كان قد ألم به ...!!

عدت إلى مدرسة النحاسين لأواصل دراستى الابتدائية ، بعد انقطاع دام عدة أسابيع ، وسرعان ما عدت إلى تفوقى حتى أننى شاركت فى إحدى المسابقات وحصلت على جائزة

كانت عبارة عن كتابين ، أولهما عن رحلة أحمد حسنين باشا - رئيس الديوان الملكى - إلى الصحراء الغربية واكتشافه لبعض الواحات بها . والكتاب الثانى كان ليعقوب صروف عن اكتشافات العلم الحديث .

وقد لعب أخواى محمد شوقى أمين وأحمد أمين الدور الرئيسى فى ثقافتى الأولى .

أستاذى الأول

كان أخى محمد الذى كان يدرس بالأزهر فى ذلك الوقت والذى أصبح فيما بعد عضو مجمع اللغة العربية . هو أستاذى الأول والذى سمح لى بالاطلاع على ما تحويه مكتبته من كتب وذخائر . فاطلعت على كل الأعداد التى صدرت من مجلة « الرسالة » وقرأت فيها لكبار الكتاب .

وكان محمد صديقًا للشيخ الغاياتى ، وهو شاعر وأديب كبير ، وكان يصحبنى معه فى زياراته العديدة إليه فكان يلقى على مسامعنا بعض قصائده وقصائد الشعراء من القدامى والمحدثين وعلى يديه أحببت الشعر وتمنيت أن أكون شاعرًا .

كذلك كان أخى محمد صديقًا للأستاذ كامل الكيلانى وهو أشهر من كتب قصصًا للأطفال فى العربية ، فكان يلقى على مسامعنا بعض القصص التى كتبها . وكان حريصًا على معرفة رأيى فيها ليقيس عليه فهم الأطفال - لها حين تصلهم منشورة باسمه ، فكنت أول قارىء لكثير من قصص كامل كيلانى ، وكنت أيضًا أول ناقد لها ... !!

ومن مكتبة أخى محمد حصلت على ترجمة فيلكس فارس لكتاب «نيتشه» الشهير «هكذا تكلم زرادشت» . الذى أثر فى تأثيرًا بالغًا حتى أننى قررت التخصص فى دراسة الفلسفة بعد الانتهاء من قراءته .

كانت مكتبة أخى محمد تزودنى بالكتب العلمية والفلسفية المعاصرة . أما أخى أحمد فكان أيضًا طالبًا بالأزهر ولكنه كان كفيف البصر . ولذا كان يستعين بى لأقرأ له بعض الكتب التراثية التى كان يدرسها لينقلها كتابة بطريقة «برايل» لمكفوفى البصر ، وقد سمح لى ذلك بقراءة الكثير من كتب التراث الإسلامى والفقه والحديث والتاريخ وأنا لا أزال فى سِن صغيرة .

بدايتى السياسية

هذا عن البدايات الأولى لتكوينى الثقافى والعلمى أما تكوينى السياسى ، فلازلت أتذكر أول مظاهرة شاركت فيها ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمرى ، حين خرجت من مدرسة النحاسين مع بقية زملائى من تلاميذ المدارس لنشارك فى مظاهرة فى حارة القربية أمام بيتنا فى عام ١٩٣٠ ، كانت مصر كلها تعج بالمظاهرات الوفدية ضد صدقى باشا - رئيس الوزراء آنذاك - وقد اعتقل أخى شوقى فى تلك المظاهرة ولكنى لم أشارك فيها احتجاجًا على اعتقال أخى أو مطالبًا بالإفراج عنه .. بل كانت المظاهرة جزءًا من المظاهرات العارمة التى شهدتها مصر كلها فى ذلك الوقت مطالبة «بالاستقلال التام أو الموت الزؤام» وهو الهتاف الشهير الذى كان يردده المتظاهرون فى ذلك الوقت ، وهو الشعار الذى كان يرفعه حزب الوفد على رأس القائمة التى تضم شعاراته فى تلك المرحة من تاريخ مصر .

وقد صحبت بعض أفراد أسرتى لزيارة أخى شوقى فى سجن «قراميدان» بحى القلعة وأذكر أن اتصالنا به كان من خارج الأسوار ، وكان يطل علينا من شباك إحدى الزنازين ، ولم أكن أدرى أننى سأكون فى هذا السجن بالذات بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عامًا !!

وفى عام ١٩٣٦ شاركت فى المظاهرات التى كانت تهتف يسقط «هور ابن الطور» كنت لا أزال طالبًا فى المرحلة الثانوية ، وكانت المدرسة كلها وفدية . وتؤيد معاهدة ٣٦ التى وقعها زعيم الوفد مع الإنجليز ، ولكنى ومعى عدد قليل من زملائى . كنا نعارض تلك المعاهدة التى لم تأت لمصر باستقلال حقيقى ، ولهذا تعرضنا لحصار الأغلبية الوفدية من زملاء المدرسة ، وكادوا يفتكون بنا لولا أن ناظر المدرسة . استطاع أن يهربنا من أحد الأبواب الخلفية للمدرسة قبل أن يفتك بنا الطلبة الوفديون المؤيدون للمعاهدة .

وخرجت أنا وزميلى أمين صفوت شقيق جلال كشك - نلف على الأحزاب لنستطلع أراءها فى تلك الاتفاقية التى نعارضها ، فذهبنا إلى حزب الأحرار الدستوريين فطردنا الرجل الذى قابلناه عند مدخل الحزب . ثم ذهبنا إلى الحزب الوطنى (حزب مصطفى كامل) لنرى بعض الشبان المجتمعين ليناقشوا إعلان حزب جديد باسم الحزب البازى على وزن الحزب النازى فى ألمانيا والذى كانت أخباره تهز الدنيا فى ذلك الوقت . ثم ذهبنا إلى حزب مصر الفتاه وتركناهم .

فكرنا فى إنشاء حزب جديد يغنينا عن كل الأحزاب التى مررنا عليها ولم تحظ برضانا أو قناعتنا فشكلنا حزبًا أطلقنا عليه حزب « المجد الفرعونى » كل ما أذكره من برنامجه ولائحته أننا قررنا أن نشرب الشاى ونأكل الجاتوه قبل أى اجتماع للحزب !!

أسرة دينية

كان اعتقال أخى محمد من الأمور الشاذة فى أسرتنا ، التى لم يكن لها أية اهتمامات سياسية ، فقد كان كل اهتمامها بالدين ، ولعلنا اكتسبنا لقب «العالم» فى عائلتنا من اشتغال معظم أفرادها بالدين ، فقد كان والدى رجل دين وكذلك أخى أحمد وأخى محمد ، وكان مقدرًا لى أن أكون من رجال الدين أيضًا لولا طبيعتى المتمردة وحبى للفلسفة والتأمل.

كان والدى من أتباع الشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية ، فضلاً عن أنهما كانا صديقين حميمين ، فكان يصحبه فى رحلات الصيد التى نصحه بها الأطباء ، وكان يذهب إليه عصر كل يوم فى مسجده الذى بناه فى حارة المغربلين بعد نهاية شارع الخيامية الذى كان - ولا يزال - يغطيه سقف خشبى ، وكان والدى يصحبنى معه أحيانًا إلى بيت الشيخ محمود خطاب ، وإلى مجلسه الذى اعتاد أن يعقده فى ساحة مسجده كل يوم ليتحلق حوله مريدوه وأتباع طريقته .

كانت للشيخ محمود خطاب مهابة لازلت استشعرها حتى اليوم ، ولازلت أذكر صفاء وجهه وشفافية نفسه ، وكنت أحرص فى نهاية كل عام دراسى من أعوام دراستى بالمرحلة الابتدائية ، أن أحمل للشيخ محمود خطاب شهادة نجاحى ، وكان يطلب منى أن أقرأها فى مجلسه أمام الجميع قبل أن يمنحنى قطعتين من النقود الفضية ذات البريق الساحر فكنت أفرح جدًا ولكن أبى كان دائمًا يأخذهما منى فيصيبنى بالحسرة .

كان أبى رجلاً صعيديًا - من أخميم - ومعروف أن أهل الصعيد يعتقدون أن تدليل الابناء - خاصة الذكور منهم - يعودهم على الضعف وحياة الطراوة التى يجب أن ينأوا بأولادهم عنها ، وربما لهذا السبب كانت علاقتى بأبى يشوبها كثير من التوتر والقلق ، وذلك على العكس من أمى التى كنت أحبها كثيرًا ، وهى كريتية الأصل من (جزيرة

كريت) وربما كانت من العائلات التركية التى سكنت الجزيرة فى عهود قديمة .. كانت أمى «هدية» وهذا هو اسمها - تخاف على من الشيوعية والشيوعيين . وتخفى أوراقى عن عيون الجميع . وتستقبل زملائى أمين عز الدين وغيره ممن كانوا يجيئون إلى بيتى فى الدرب الأحمر ، فتدخل إلينا حاملة الشاى أو الطعام دون أن تنطق إلا بكلمات الترحاب ثم تخرج فى هدوء .

كذلك كان أخى أحمد - الذى يكبرنى مباشرة - من أعضاء الجمعية الشرعية . وكان طالبًا فى كلية الشريعة بالأزهر الشريف ، وقد حصل منها على شهادة العالمية . وكنت أنا المكلف بقراءة الكتب المقررة عليه لينقلها بدوره كتابة بطريقة «برايل» التى تناسب المكفوفين ، وقد تمكنت بذلك من الاطلاع على معظم كتب التراث الإسلامى وأنا لا أزل فى سن صغيرة .

كذلك كنت أنا المكلف بمصاحبة أخى أحمد الكفيف فى زياراته لمقر الجمعية الشرعية ، فكنت أحضر معه اجتماعاتها كما كنت أحضر الدروس التى كان يكلف بإلقائها فى مساجدها ، ولم يكن يذهب إلى المسجد للصلاة أو لإلقاء الدروس والخطب إلا وأنا معه .

وهكذا نشأت فى أسرة دينية اكتسبت لقبها «العالم» من انتساب معظم أفرادها للأزهر الشريف ، كما كان حى الدرب الأحمر الذى أمضيت فيه الثلاثين عامًا الأولى من عمرى ، هو المناخ الذى تنفست فيه ثقافتى وتشكل فيه وجدانى ، وهو حى البروليتارية فى القاهرة القديمة وقد اكتسب كل شارع فيه اسمه من الحرف والصناعات التى كانت منتشرة فيه فى ذلك الوقت ، فكان شارع النحاسين نسبة لعمال النحاس ، وشارع الخيامية نسبة لصناع الخيام .. وشارع الفحامين . نسبة لعمال الفخم ، وشارع القربية نسبة لصناع القرب وشارع الصاغة نسبة لصناع المشغولات الذهبية .. وهكذا .

ولكن لأنه كان مجاورًا للأزهر الشريف وسيدنا الحسين فكان يشع بجو دينى يصعب أن تجد مثله فى بقية أحياء القاهرة .

« 2 »

لكى نتحدث عن بداية الحركة الشيوعية فى مصر . لابد وأن نتحدث أولاً عن الحركة السياسية والاجتماعية فيها . ففى أواخر القرن التاسع عشر كان المجتمع المصرى يغلى بالاضرابات والمطالب العمالية . مثل إضراب عمال الدخان وعمال السكك الحديدية وغيرهم . ووسط هذه الحركة نشأ الحزب الوطنى وحركة التعاونيات فى مصر . وكان للحزب الوطنى فى العشرين الأولى من القرن الماضى بعض الرؤى الطبقية نتيجة لتسرب بعض الأفكار والنظريات الاجتماعية والسياسية من أوروبا إلى مصر فى ذلك الوقت فرأينا ذلك الحوار الشهير بين فرح أنطون والشيخ محمد عبده حول نظرية التطور التى أرساها دارون فى انجلترا . كما تحدث سلامة موسى عن الاشتراكية لأول مرة فى مصر وكان موسى كما هو معروف - من أنصار الجماعة الفابية فى انجلترا وهى ذات النزعة الاشتراكية الإصلاحية وكان معه فى ذلك الوقت الكاتب الإنجليزى الشهير برنارد شو .. وهناك مصطفى حسنين المنصورى الذى أصدر عام ١٩١٥ كتابًا يتحدث فيه عن تطبيق الاشتراكية فى الواقع المصرى . وعلاقة الاشتراكية بالدين وغيره من الظواهر فى المجتمع المصرى .

أول حزب ماركسى

وقبل أن ينتهى العقد الثانى من القرن العشرين تكون أول حزب اشتراكى فى مصر وهو الحزب الديمقراطى الذى ضم أسماء كبيرة وشهيرة مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق صاحب كتاب « التمهيد » أستاذ الفلسفة الإسلامية فى الأزهر وكذلك محمود عزمى الكاتب والصحفى والمفكر الشهير . وغيرهما من الأسماء المعروفة فى ذلك الوقت .

لقد كانت مصر تبحث عن طريق للخلاص السياسى والاجتماعى والاقتصادى فكان هناك الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ومن بعده محمد فريد وهو الحزب الذى كان يرى أصحابه أن الخلاص يأتى بالتحالف مع تركيا ضد الانجليز . ثم جاء التحالف مع فرنسا وإلى جانب ذلك كان هناك حزب الأمة بزعامة لطفى السيد والذى كان يرفع شعاره الشهير « مصر للمصريين » .

وفى عام ١٩٢٢ وبينما كانت ثورة الوفد فى أوجها ترجم لأول مرة فى مصر كتاب «لينين» الدولة والثورة .. وكان هناك البحارة الروس الذين هربوا من المدمرة «بوتمكين» ليعيشوا فى الإسكندرية التى فر إليها أيضًا عدد من الروس الذين اختلفوا مع الثورة الروسية ليروجوا لبعض الأفكار الشيوعية فى الإسكندرية التى كانت تعج بالآلاف من الأجانب فى ذلك الوقت .

فى هذا المناخ تكون الحزب الشيوعى المصرى الذى ضم سلامة موسى وحسنى العرابى وغيرهما من المثقفين المصريين فى ذلك الوقت وكان الشيخ أبو الفتوح - وهو أحد رجال الدين - فى السكرتارية العامة للحزب وأحد قياداته الشهيرة والذى كان يتحدث إلى العمال عن العلاقة بين الاشتراكية والإسلام . وأقنع الكثيرين منهم بالانضمام للحزب . بل أقنع الكثيرين من المشايخ وطلاب الأزهر للانخراط فى الحركة الشيوعية المصرية .

وحين كون الاتحاد السوفيتى الأممية الثالثة . أصر على أن نطلق الأحزاب الاشتراكية على نفسها اسم «الحزب الشيوعى» بدلاً من الحزب الاشتراكى أو الديمقراطى كما طلبت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى من تلك الأحزاب عقد مؤتمرها العام تمهيدًا للمشاركة فى الأممية الثالثة وغير ذلك من المطالب السخيفة التى جاءت بالكثير من الآثار السلبية على الحركة الاشتراكية فى مصر . فخرج العديد من الرموز الثقافية من الحزب احتجاجًا على ذلك وحين ذهب حسنى العرابى إلى روسيا لحضور مؤتمر الأممية الثالثة قال فى خطابه الذى ألقاه هناك « إن الأعلام الحمراء ترفرف الآن فوق الهرم » .. إلى غير ذلك من السخافات التى أطلقها والذى ثبت فيما بعد أنه كان رجلاً نصابًا أو مختلاً حين انضم للحركة الفاشية وأيد كلاً من موسيلينى وهتلر !!

ضربنا سعد ..!!

ولكن بعد أن شكل سعد زغلول الحكومة فى عام ١٩٢٢ طلب منه الإنجليز أن يصفى الحزب الشيوعى المصرى الذى كان علنيًا فى ذلك الوقت فدخل السجن من دخل وهرب من هرب ونزل إلى تحت الأرض من نزل .

وفى الاحتفال الأخير لحزب الوفد الذى أقامه بمناسبة ذكرى تأسيسه قلت لهم إن ثورة ١٩ لم تكن ثورة الوفديين وحدهم بل كانت ثورة الشعب المصرى كله وقد ارتكب الوفد

أكبر أخطائه فى حق الليبرالية التى يرفعها شعارًا له حين استجاب لطلب الإنجليز بتصفية الحزب الشيوعى المصرى وإدخال قيادته السجون !

ومنذ ذلك التاريخ بقى الحزب الشيوعى المصرى تحت الأرض خاصة فى الأقاليم والمحافظات وقد قابلت فى الأربعينيات أحد قياداته وهو شعبان حافظ الذى هرب إلى الاتحاد السوفيتى وبقى هناك لسنوات طويلة قبل أن يعود إلى مصر وكان جواز سفره قد انتهى بطبيعة الحال فرفضت السلطات المصرية دخوله أو تجديد جواز السفر له فعملنا على تهريبه إلى داخل البلاد وبقى فيها سنوات أخرى بلا جواز سفر أو أية وثيقة تثبت شخصيته حتى دخل سجن الواحات فى نهاية الخمسينيات ومات فيه .

وبعد موت لينين جاء ستالين إلى الحكم ليخرج على الحركة الشيوعية العالمية بنظرية جديدة يقول فيها إن الأحزاب الوطنية والبرجوازية قد ألقت بعلم الوطنية أى أنه انتزع صفة الوطنية عن تلك الأحزاب التى كانت تقود الكفاح الوطنى فى ذلك الوقت ضد الاستعمار فى بلادها . وقد كان الحزب الشيوعى المصرى أصبح سريًا فى ذلك الوقت وقبلها كان يسعى للتحالف مع حزب الوفد الذى سارع بضربه امتثالاً لأوامر الإنجليز له ضمن الصفقة التى وصل بها الوفد إلى الحكم لأول مرة .

والغريب أن الحزب الشيوعى المصرى ظل يسعى وهو سرى للتحالف مع حزب الوفد رغم كل ما أحدثه فيه من أضرار حتى أن الشيوعيين المصريين رفضوا قرار ستالين بنزع صفة الوطنية عن الأحزاب البرجوازية والتى كان الوفد يمثلها فى مصر .. وهكذا ظل حزب الوفد حزبًا يتسم بالوطنية ويقود الحركة الوطنية فى مصر فى نظر كل الشيوعيين المصريين رغم امتثاله لأوامر الإنجليز بضرب الحركة الشيوعية فى مصر !!

كان الحزب الشيوعى المصرى فى ذلك الوقت يتكون من غالبية ذات أصول ريفية وفلاحية وعدد كبير من العمال كما ضم فى صفوفه عددًا لا بأس به من الأجانب والعرب خاصة من منطقة الشام حتى أن « شبلى شميل » مؤسس الحزب الشيوعى اللبنانى كان واحدًا من قيادات الحزب الشيوعى المصرى وقد هرب إلى لبنان بعد ضرب سعد زغلول للحزب ليؤسس هناك الحزب الشيوعى اللبنانى الذى هو الآن من أكبر الأحزاب الشيوعية فى الساحة العربية .

وقد رفض الحزب الشيوعى الصينى أيضًا رأى ستالين فى فك ارتباطه بالحزب الوطنى الصينى بقيادة صن يات صن وظل الشيوعيون الصينيون على علاقة تنسيق وارتباط مع الحزب الوطنى الصينى رغم أنف ستالين .

وقد أرسلت قيادة الحزب الشيوعى المصرى إلى ستالين واللجنة المركزية للحزب السوفيتى رسالة تؤكد فيها تمسكها بقيادة الوفد للحركة الوطنية المصرية واستمرار التنسيق والتعاون معه لمصلحة مصر والحزب الشيوعى المصرى وترفض دعوة ستالين لفك الارتباط بالوفد واعتباره حزبًا برجوازيًا خائنًا .

وقد استمر الحال بالحزب الشيوعى المصرى على هذا الحال حتى تفكك فى عام ١٩٣٧ وذلك نتيجة للظروف السياسية السائدة فى ذلك الوقت واستقطاب حزب الوفد للحركة الجماهيرية التى بلغت أوجها فى مظاهرات ١٩٣٥ المطالبة بعودة الدستور .

وفى الأربعينيات وفى أعقاب حادث قصر عابدين عام ١٩٤٢ والذى جاء بحزب الوفد إلى السلطة راكبًا دبابات الإنجليز ، عاد الحزب الشيوعى المصرى من جديد ، بل ونشطت كثير من الأحزاب السرية فى ذلك الوقت . حتى يرى بعض المؤرخين أن تنظيم الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة يوليو ، قد بدأ فى ذلك العام ١٩٤٢ بعد سقوط حزب الوفد وقبوله تشكيل الوزارة امتثالاً لرغبة المحتلين . وكان من نتيجة ذلك أن فقد الكثيرون من أقطاب الحركة الوطنية الأمل فى حزب الوفد وقرروا العمل منفردين .

يهود فى كل مكان !!

ولكن لم يعد الحزب الشيوعى القديم كما كان فقد انبثقت عنه حركات شيوعية وماركسية كثيرة كما تولدت حركات مستقلة أخرى . منها تنظيم «حدتو» أو حركة التحرر الوطنى وطليعة العمال ، وحركة «نحشم» ونوادى الحزب الشيوعى . وفى هذه الفترة بالذات ظهر اليهود فى تلك الأحزاب والحركات ، فرأينا أربعة منهم فى طليعة العمال . يوسف درويش وأحمد صادق سعد . والدويك . أما هنرى كوريل وهو اليهودى المصرى ذو الأصل الإيطالى فقد كان فى حركة « حدتو » .

وكان على رأس حركة «نحشم» «نحو حزب شيوعى مصرى» شخص يهودى آخر .

حتى ذلك الوقت لم أكن قد دخلت الحركة الشيوعية ، بل أننى لم أكن قد أصبحت ماركسيًا بعد . بل والأغرب من ذلك أننى كنت أسخر من الماركسيين من زملاء الجامعة حيث كنت متأثرًا بأفكار «نيتشه»والوجوديين وأصحاب المدرسة المثالية واللامعقول .. كنت لا أزال أبحث عن طريق وكنت أقرب إلى طريق المثالية فى مجلة الرسالة التى حصلت عليها من مكتبة أخى شوقى أمين ووقعت عينى على ترجمة لكتاب « هكذا تكلم زرادشت » للفيلسوف والشاعر الألمانى «نيتشه» عشت فيه وعشقته عشقًا لا حد له .. حيث كنت أرى فيه نبضًا إنسانيًا شديد الروعة . وحينما عرفت أن أول كتاب لعبد الرحمن بدوى كان عن «نيتشه» كان ذلك من الدوافع الأساسية لالتحاقى بقسم الفلسفة .

فى تلك الفترة كنت مثاليًا ومتصوفًا . ليس تصوفًا دينيًا ، بل تصوفًا روحانيًا . فقد وقع فى يدى مبكرًا الكتاب العظيم لماسينيون عن الحلاج فجننت به . وقد تأثرت بقصيدته الجميلة . «اقتلونى ياثقاتى : إن فى قتلى حياتى» وقد كتبت قصيدة محاكاة لها . وهكذا استغرقنى التصوف .. كان نيتشه بداية الفلسفة المثالية . بل بداية مشروع لتغيير العالم . ولكن على أساس روحانى وباطنى ووجدانى .

وهكذا دخلت قسم الفلسفة رغم أن أخى شوقى كان حريصًا على أن أدخل قسم اللغة العربية .

كنت من أسرة فقيرة ولهذا كان من الصعب على أن أتفرغ للدراسة بالجامعة فاشتغلت موظفًا بوزارة المعارف العمومية فى وظيفة كاتب توريدات بالشهادة الثانوية التى كانت تسمى التوجيهية فى ذلك الوقت كان ذلك عام ٣٩/ ١٩٤٠ ثم انتقلت موظفًا بالجامعة وقد سمح لى ذلك بعلاقة وطيدة مع بعض أساتذتى خاصة الدكتور يوسف مراد أما الدكتور عبد الرحمن بدوى الذى من أجله دخلت قسم الفلسفة ، فقد كان أكثر أساتذتى حظًا من نفورى .. رغم أننى كنت مليئًا بالتجربة الوجودية الهيجلية النيتشوية . وهى تجربة عبد الرحمن بدوى نفسه ، إلا أن طبيعته النيتشوية الاستعلائية المؤمنة بأخلاق السادة وأخلاق العبيد جعلتنى أنفر منه .

ورغم طبيعتى المثالية فى تلك الفترة إلا أننى كنت مندمجًا اندماجًا كاملاً فى الحركة الوطنية اليدمقراطية ، وكنت أسخر من الماركسيين كما ذكرت قبل قليل ، وأذكر جلسات عديدة مع أمين عز الدين - وكان صديقًا عزيزًا ولا يزال - كنا نسخر منهم ، وكنت أختلف مع بعض الماركسيين فى الجامعة لأنهم كانوا فى ذلك الوقت يثيرون بعض الأفكار ذات الطابع الأخلاقى التى لم أكن أقبلها وأنا ابن الحارة المصرية الشعبية والبيئة الدينية .

عرفت لويس عوض فى تلك الفترة وكان يقدم لى المادية والماركسية بشكل غامض وملتبس .. وأصبحت ممزقًا بين مثاليتى ووجوديتى من ناحية وبين إيمانى بالأفكار التى تشربتها من الجو الدينى الذى عشته .

وأصبحت ماركسيًا

ولكن وقع فى يدى كتاب المادية والنقد التجريبى الذى وضعه «لينين» ليحدث التحول فى حياتى كلها ، فغيرت رسالة الماجستير التى كنت أعدها على أساس مثالى عن نظرية المصادفة فى الفيزياء المعاصرة إلى نظرية المصادفة على أساس موضوعى . وأخذت أدافع عن الأسس الموضوعية للمصادفة بعد أن كنت أؤمن بأنها تقوم على أسس ذاتية ومثالية .

لقد ساعدنى هذا الكتاب على اكتشاف الأساس العلمى والموضوعى لكل شىء فى العلم والسياسة والمجتمع والأدب وقررت أن أنضم للحركة الشيوعية !

لقد حاولت اكتشاف ما يسمى بالقانون الداخلى فى العمل الفنى ، والماركسية ساعدتنى كثيرًا رغم أنه كانت عندى هذه الخلفية ، التى تتطلع إلى اكتشاف ما هو ضرورى ، والماركسية عرفتنى قانون الضرورة فى المجتمع ، وبالتالى إمكانية اكتشاف الضرورة فى الإبداع البشرى أيضًا هل الضرورة كامنة فى داخل العمل الفنى ؟ أن العمل الفنى كائن حى قائم بذاته بما له من كيان مستقل ، ولكن تميزه لا يعنى انفصاله عن تاريخيته أو واقعه . وأتذكر أن أولى المعارك التى خضتها مبكرًا فى روز اليوسف كانت مع مصطفى محمود ، تكلمت عن حركة النهر وأن كل عمل أدبى ينبغى أن أحدد فيه حركة النهر الرئيسية واتجاهها وطبيعتها . وهكذا بدأت رؤيتى النقدية تتشكل فى الأصل من الزاوية الفلسفية .

وأتذكر أيضًا أن الكتابات المبكرة التى أدخلتنى أكثر لهذه الرؤية تلك المعركة التى بدأت عام ١٩٥٤ بيننا - أنا والدكتور عبد العظيم أنيس - وبين الدكتور طه حسين والتى سجلها كتاب فى الثقافة المصرية والتى كانت النقلة التى تجلى فيها الوضوح الفكرى والنظرى .. كان طه حسين يتحدث عن الأدب باعتباره ألفاظًا ومعانى ، ونحن قلنا أن الأدب شكل ومضمون ، وربما استخدمنا بشكل مبكر تعبير «البنية» وأن الشكل فى الأدب ليس مجرد إطار خارجى ولكنه بنية تعبر عن حركة داخلية فى قلب العمل الفنى وتحول موضوعه إلى مضمون وبالتالى فهى عملية ديناميكية داخلية .

« 3 »

بعد أن استقريت على الماركسية منهجًا ، والشيوعية طريقًا وطريقة .. كان على أن أبحث عن أحد التنظيمات الشيوعية لأنضم إليه وأصب فيه طاقتى من أجل التغيير والتقدم .

كانت الساحة السياسية المصرية مليئة بالتنظيمات الشيوعية فى ذلك الوقت من بداية النصف الثانى من القرن العشرين الذى يلملم أوراقه الآن استعدادًا للرحيل[١] .

كان هناك تنظيم «حدتو» وهو اختصار لعبارة حركة التحرر الديمقراطى الوطنى وكان على رأسه فى ذلك الوقت اليهودى الإيطالى الأصل هنرى كوريل . ولهذا رفضت الانضمام إليه .. ليس لأن كوريل يهودى ، ولكن لأنه «خواجة» يتكلم «خواجاتى» ورأيت فى ذلك الوقت وأنا المصرى ابن البيئة الشعبية أنه ليس من المعقول أن يقودنا إلى التغيير خواجة أو رجل أجنبى ، هو المنوط به تخليصنا من الاحتلال الخواجاتى . وأن مصر بها الكثير من القيادات الجديرة بقيادة حركة المجتمع نحو التغيير والتقدم .

وجدت ضالتى أخيرًا فى حزب شيوعى صغير اسمه نواة الحزب الشيوعى المصرى .. واختصاره «نحش» وكان هذا الحزب يهدف إلى تطهير الحركة الشيوعية المصرية من اليهود . ليس لأنهم يهود ولكن لأن اليهود لا يمكن أن يقودوا الشعب المصرى .. بل ربما عرقلوا الحركة وساهموا فى تأخيرها ، وعزلها عن الجماهير التى كان كرهها لليهود فى ذلك الوقت قد بلغ أوجه بسبب احتلالهم لفلسطين .. وربما يكونون قد دخلوا الحركة الشيوعية المصرية لهذا السبب « حيث كان من الشائع عن اليهود آنذاك أنهم يلجأون إلى المؤامرات والدسائس وصولاً لأهدافهم المستترة » .

أما الهدف الثانى الذى كان يهدف إليه نواة الحزب الشيوعى هو «مصرنة» أو تمصير الحركة الشيوعية وتوحيدها . وتمصيره باستبعاد اليهود من صفوفه .. وتوحيده بمحاولة تجاوز نقاط الخلاف ذات الطابع النظرى فى أغلبها بين أكثر من ثلاثة عشر تنظيمًا شيوعيًا

(١) الحديث كان يجرى فى عام ١٩٩٩ .

كانت على الساحة المصرية فى ذلك الوقت .. وكان على رأس تنظيم النواة الذى انضممت إليه رجل اسمه فوزى جرجس وهو عامل كان يبيع قطع غيار سيارات وله كتاب من أفضل الكتب التى أرخت لمصر اسمه «تاريخ مصر القومى» رغم أن هذا الرجل لم يتلق فى حياته أى قدر من التعليم بالمدارس الرسمية ولكنه كان عصاميًا حين علم نفسه بنفسه ، وأصبح من كبار المثقفين فى الحركة الشيوعية المصرية .

شيوعى مصرى !!

وقد التقيت بأعضاء هذا التنظيم على أساس تحرير الحركة الشيوعية المصرية من اليهود ، وتوحيد فصائلها المختلفة .

وهكذا استقر بى المطاف أخيرًا فى أحد الأحزاب الشيوعية ، بعد أن كنت وفديًا وأنا فى مدرسة النحاسين الابتدائية .. ثم فكرت فى الانضمام لحزب مصر الفتاة (القمصان الخضر) ولكنى كرهت هذا الحزب لأن رئيسهم كان شخصًا اسمه الجوهرى . وكان يأتى متأخرًا عن موعده بحجة أن «الدوتش» أو موسولينى كان يتأتى إلى الاجتماعات متأخرًا !!

كان حزب مصر الفتاة فى ذلك الوقت ذا طبيعة فاشية وهذا هو ما جعلنى أنفر منه ومن قيادته الديكتاتورية .

وقد نفرت من حزب الوفد أيضًا بسبب سقوطه فى وهدة النمطية والهيكلة . حين ألبس أعضاءه « القمصان الزرق » فأصبحوا مثل العساكر أو الميليشيات ، وقد رأيت أن الوفد قد انسلخ بذلك عن الجماهير ، وتحول من حزب جماهيرى إلى كتيبة عسكرية أو معسكر كشافة ..!!

حاولت البحث عن حزب يضمنى وأفرغ فيه طاقاتى المتفجرة داخلى من أجل التغيير ، وقد مررت على كل الأحزاب المصرية فيما عدا الأحزاب الشيوعية . لأننى كنت أكرهها كراهية التحريم ، رغم صداقتى للعديد من الأصدقاء الماركسيين مثل كمال عبد الحليم وعبد الرحمن الخميسى وعبد الرحمن الشرقاوى ولويس عوض ، وكلهم كانوا من الشعراء ، وكنت أسخر من نظرياتهم فى الشعر والأدب . فكنت أؤمن بأن الشعر ينبغى أن يكون شعرًا ولن يكون كذلك إلا إذا خلا من المضمون الاجتماعى الذى .. كنت أرى أنهم

يحشرونه حشرًا فى قصائدهم . كذلك كان بعض الشيوعيين يرفعون شعارات غير أخلاقية .. مثل « اجذب بالجنس وأربط بالنظرية » .. وكانت هناك علاقات جنسية مفتوحة ومفضوحة، كنت أنفر منها بطبيعتي الدينية التى نشأت عليها فى حى الأزهر العريق وفى بيت « العالم » الذى ينتمى معظم أبنائه للأزهر والجمعية الشرعية .

حذلقة شيوعية !!

كذلك كنت أرى فى كلام بعض أصدقائى من الماركسيين كثيرًا من الحذلقة والتقعر .. فكانوا - مثلاً يستعملون كلمى «وعى» كثيرًا ويدخلونها فى كلامهم بمناسبة وغير مناسبة دليلاً على تثقفهم .

لم أكن أنفر من كلامهم ومناقشاتهم عن جهل أو عدم فهم ، فأنا دارس الفلسفة . ومتعمق فيها ، ولكنى كنت أرى فيهم شيئًا من التظاهر والادعاء ، وأنا أكره ذلك وأميل إلى البساطة والتواضع .

وبعد انضمامى إلى نواة الحزب الشيوعى . استطعنا أن نوحد كل الفصائل والتنظيمات الشيوعية باستثناء فصيلين فقط ، الحزب الشيوعى المصرى وعلى رأسه فؤاد مرسى وحزب الطليعة الذى كان يضم أحمد صادق سعد وأبو سيف يوسف .. وقد نجحنا فى توحيد تلك الفصائل بفضل دخول معظم قياداتها إلى السجون فى أعقاب قيام ثورة يوليو .

وقد لعبت الدور الرئيسى فى عملية التوحيد ومعى شهدى عطية - رحمه الله - رغم أن قيادات تلك الفصائل فى السجون كانوا ضد عملية التوحيد ... حتى أنهم حملوا علينا حملة شعواء بسبب جهودنا لتوحيد الحركة . وأذكر أنه فى أول اجتماع للقيادة الجديدة الموحدة أصدرنا قرارًا بفصل هنرى كوريل .. الذى كان قد غادر مصر فى ذلك الوقت هربًا بعد قيام الثورة .. ولكنه كان لا يزال عضوًا فى اللجنة المركزية لحركة «حدتو » بل وكان يقودها من الخارج .

وقد ساعدنا فى عملية التوحيد ، هروب معظم - إن لم يكن كل - اليهود الذين كانوا يسيطرون على الحركة الشيوعية فى مصر بمختلف فصائلها وأحزابها . فقد استشعر هؤلاء الخطر من ثورة يوليو وقادتها الذين كان معظمهم قد عاد لتوه من فلسطين بعد محاربة اليهود فيها ، وكانت كل المؤشرات تقول أن هؤلاء الضباط قد عادوا إلى مصر

ليصفوا حساباتهم مع اليهود وأعوانهم فى الداخل ، فهرب الجميع وبقيت الأحزاب والحركات الشيوعية المصرية للمصريين فقط ، وقد ساعدنا ذلك على توحيدها ، بعد أن كان اليهود يقفون حائلاً دون إتمام عملية التوحيد ، فضلاً عن أن القيادات الكبيرة لتلك الأحزاب كانت رهن السجن والاعتقال . فلم نجد - أنا وشهدى عطية - كبير عناء فى عملية التوحيد التى كنا ندعو إليها منذ زمن بعيد .

حركة واحدة

ولم يمر عام ١٩٥٦ حتى نجحنا فى إقناع فؤاد مرسى واسماعيل صبرى عبد الله وغيرهما من قيادات الحزب الشيوعى المصرى بالانضمام للحزب الشيوعى الموحد . وكان ذلك أكبر نجاح حققته الحركة الشيوعية فى ذلك الوقت ، حيث كان فؤاد مرسى من أكبر المعارضين لعملية التوحيد نظرًا لمكانته الكبيرة بين أعضاء حزبه فكانوا يهتفون له « عاش خالد ألف عام » .. والرفيق « خالد » الذى كان رفاقه يحملونه على الأكتاف ويتمنون له «الخلود » هو الدكتور فؤاد مرسى نفسه !! وفى عام ١٩٥٧ نجحنا أيضًا فى ضم حزب الطليعة فى عملية الدمج والتوحيد . وفى عام ١٩٥٨ انعقد لأول مرة فى مصر أول مؤتمر عام لحزب شيوعى واحد .

كان عبد الناصر قد استطاع بعد حرب ٥٦ وتأميم قناة السويس ، وتمصير الشركات والبنوك . أن يصبح زعيمًا جماهيريًا بغير حدود ، بل تعدت جماهيريته حدود القطر المصرى ليصبح زعيمًا عربيًا ، بلا منافس وقد رسخ فى اعتقادنا جميعًا أننا قد خرجنا من الحلبة ما لم نتوحد . لنواجه جماهيرية عبد الناصر الكاسحة بحزب واحد يستطيع التأثير فى الشارع المصرى الذى وقع تحت سيطرة عبد الناصر سيطرة شبه كاملة .

والحقيقة أن علاقتنا بعبد الناصر والثورة فى ذلك الوقت كانت تتردد بين المد والجزر ، فتارة نكون معه وتارة أخرى نكون ضده ، بينما هو أيضًا كان يعمل على استقطابنا أحيانًا ، وأحيانًا كان يستبعدنا من حساباته وتحالفاته السياسية تبعًا للظروف المحلية والدولية .

تأييد بحذر

وعند قيام الثورة . ونجاحها فى طرد الملك فاروق تم إصدارها لقانون الإصلاح الزراعى ، وإعلانها الكفاح المسلح سبيلاً لإخراج الإنجليز من منطقة القناة ، كل ذلك جعلنا نؤيد الثورة ونقف إلى جانبها ولكن بشىء من التحفظ أو الترقب ، دفعنا إليه أن السفير الأمريكى «كافرى» هو الذى اصطحب الملك فاروق إلى يخته الملكى «المحروسة» الذى أقله إلى أوروبا مطرودًا من مصر ، ووداع السفير الأمريكى للملك فاروق ، ونصيحته له بالخروج من مصر امتثالاً لأوامر الثورة جعلنا نعتقد أن أمريكا هى التى كانت وراء الثورة ضد فاروق وأنها سوف تحل محل إنجلترا فى احتلال مصر .

وقد قادنا هذا التحليل إلى أن ثورة يوليو ، ثورة أمريكية ، خاصة أن أمريكا سارعت فى ذلك الوقت بتقديم مشروع للمعونة إلى مصر جاء فى نقطته الرابعة أن أمريكا ستزود مصر بكميات كبيرة من الدجاج و «الكتاكيت» فكنا نسخر من كتاكيت النقطة الرابعة . فضلاً عن أن المشروع كله كان بالنسبة لنا مؤشرًا على أن أمريكا حريصة على نجاح الثورة فى مصر بدليل أنها تقدم لها المعونة حتى تستمر !!

وقد دفعنا لاتخاذ هذا الموقف المناهض للثورة . رفض قيادتها السماح بخروج المسجونين الشيوعيين بعد إعلانها العفو عن جميع المساجين السياسيين الذين كانوا قد دخلوا السجون فى عهد فاروق . بحجة أن الشيوعية ليست جريمة سياسية ، ولكنها جريمة اقتصادية !!

وقد ظللنا على موقفنا المعادى للثورة حتى قامت إسرائيل بعدوانها على غزة عام ١٩٥٥ وكان عبد الناصر فى ذلك الوقت قد تقدم بطلب إلى أمريكا لتزويده بالسلاح ، ولكن أمريكا رفضت ذلك ؛ ما لم يعلن عن استعداده الصلح مع إسرائيل . فقد كانت أمريكا تعتقد أن أى سلاح سيحصل عليه عبد الناصر سيوجهه إلى إسرائيل . حينئذ شرع عبد الناصر فى الاتجاه إلى الكتلة الشيوعية . بعد مؤتمر باندونج الشهير ، وعقد عدة اتفاقيات مع روسيا لتزويده بالسلاح الذى يمكن مصر من الوقوف فى وجه العدوان الإسرائيلى الذى بدأ بغزة .

إسقاط عبد الناصر !!

وبعد ذلك عقدنا مؤتمرًا بناحية الهرم قررنا فيه كحركة شيوعية أن نؤيد عبد الناصر تأييدًا نقديًا ، أى نسانده ولكن ننقد ما فيه من سلبيات ، جاء ذلك القرار بعد خلافات حادة بين مختلف القيادات الشيوعية ، وقد رأيت لكى أقنعهم بمساندة عبد الناصر والثورة . أن هذا هو السبيل لاحتواء عبد الناصر تمهيدًا لإسقاطه . وإن ذلك لن يتم إلا بالاقتراب منه والدخول فيه وليس الابتعاد عنه وتركه للقوى الأخرى .

وأذكر أن رفيقًا لنا كان قد ترك الاجتماع قبل أن نصيغ القرار الذى توصلنا إليه بالتأييد المتحفظ لعبد الناصر ، وبعد أن صغنا القرار طلبت من أحد الرفاق أن يمر على ذلك الرفيق الذى غادر الاجتماع مبكرًا ليطلعه عليه . وحين قرأ هذا الرفيق القرار الذى توصلنا إليه أخذ القلم من جيبه وأضاف عبارة فى نهاية القرار الذى لم يتضمن سوى التأييد ، قال فيها «وهذا هو السبيل لإسقاط الديكتاتورية العسكرية »!

كانت هذه العبارة التى أضافها رفيقنا منفردًا ودون علمنا جميعًا . بمثابة القنبلة التى نسفت كل ما توصلنا إليه ، بل إنه أوصلنا إلى عكس ما كنا نريد إعلانه من موقف مؤيد لعبد الناصر ، وأصبحت تلك العبارة حجة علينا فى كل المحاكمات والتحقيقات التى دخلناها بعد ذلك ، حيث لم يعد فى استطاعتنا دفع الاتهامات الموجهة إلينا بالتآمر لقلب نظام الحكم، بأننا من مؤيدى الثورة والمدافعين عنها ، حيث أصبح دفاعنا عن الثورة وتأييدها فى نظر خصومنا هو وسيلتنا لإسقاط الثورة وقيادتها الديكتاتورية وذلك باعترافنا نحن اعترافًا مكتوبًا وثابتًا !!

لقد أصبحت نوايانا مشكوك فيها بعد ذلك ولم نعد نعرف كيف نتخلص من تأثير تلك العبارة فى علاقتنا بالثورة وقادتها كما أنه لم يعد فى مقدورنا الاستمرار فى معاداة الثورة خاصة بعد اتخاذها أية خطوة كنا نرى فيها اقترابًا من أهدافنا المعلنة التى ظللنا نكافح من أجلها طيلة هذه السنوات .

وهكذا أصبح معظمنا مؤيدًا للثورة ولكنه لم يبرح بتأييده ذلك موضع الاتهام والشك الذى وضعنا فيه رفيقنا «الذكى» الذى لم يكن مع الاتجاه القائل بالوقوف إلى جانب الثورة وتأييدها !!

« 4 »

بسبب تلك العبارة الشهيرة التى أقحمها رفيقنا «الخبيث» فى نهاية البيان الذى كتبناه تأييدًا للثورة .. والتى قال فيها « وهذا هو السبيل لإسقاط الديكتاتورية العسكرية » ظلت علاقتنا بالثورة وبقائدها جمال عبد الناصر محل شك دائمًا . حتى جاء تأميم قناة السويس الذى اعتبرناه خطوة متقدمة جدًا على طريق الكفاح ضد الاستعمار وتصفية مصالحه فى مصر . وأخذنا نعد العدة لمواجهة جميع الاحتمالات المترتبة عليها .. وأولها احتمال قيام انجلترا وفرنسا بعدوان على مصر لاسترداد القناة من أيدى « مغتصبيها » المصريين !!

وسرعان ما صدقت توقعاتنا وحدث العوان الثلاثى على بورسعيد التى كان لنا فيها بالفعل كثير من الخلايا الشيوعية من مختلف أنحاء القطر ، بل ومن مختلف أنحاء الأقطار العربية والأجنبية وكنا نحن الذين قدنا عمليات المقاومة المسلحة ضد قوات الغزو وساعدنا فى دخول المتطوعين من مختلف القيادات الوطنية الأخرى للمشاركة فى عمليات المقاومة التى كانت تحت قيادتنا كاملة . وقامت بعض عناصرنا بعمليات بطولية وانتحارية غير مسبوقة فى صفوف القوات المعادية . ونجحنا فى اختطاف «مورهيد» أحد القادة الإنجليز فى عملية خاطفة أذهلت القوات الغازية وأربكت صفوفها .

حين وصلت طلائع قواتنا من المتطوعين إلى بورسعيد وجدت بعض الشبان المصريين من أبناء بورسعيد فى غاية الحماسة والفاعلية ولكن تنقصهم الخبرة العملية والتنظيم .

فمثلاً كان هؤلاء الشبان يكتبون على الأسفلت باللغة الإنجليزية « your king is Awaman» أى أن «ملكتكم امرأة» وذلك لإغاظة الإنجليز وتحقيرهم أو لهز معنوياتهم فكان الإنجليز لا يعبأون بذلك . لأنهم يعتبرونه أمرًا عاديًا .

مركز قيادة !!

كان أحمد رفاعى هو قائد المقاومة الشعبية فى بورسعيد مع آخرين وكنت أنا وشهدى عطية فى القاهرة بمثابة مركز القيادة فى «قهوة الحرية» بالمختلط .. وكانت تأتينا المعلومات من بعض عناصرنا ومقاتلينا من داخل بورسعيد فنقوم بإبلاغها فورًا إلى القيادة المصرية . التى ثبت لديها بالتجربة أن المعلومات التى نوصلها لهم كانت فى غاية الأهمية فى سير عمليات المقاومة ونجاحها فى إيقاع العديد من الخسائر فى صفوف القوات المعادية .

ولقد كانت حرب بورسعيد هى المحك العملى لإثبات حسن نوايانا تجاه الثور وعبد الناصر ، خاصة بعد أزمة الثقة التى حدثت أثر التوقيع على البيان الشهير الذى أصبح «صكًا» بسوء النية تجاه الثورة وإضمار الشر لها .

ولأول مرة منذ عام ١٩٢٢ يخرج فيها الشيوعيون على وجه الأرض .

بعد أن ظلوا طيلة تلك الأعوام السابقة إما فى السجون أو فى مخابئهم السرية . فأصبحت اجتماعاتهم علانية . ومنشوراتهم توزع بمنتهى الحرية وبتشجيع من السلطة الرسمية بالبلاد ، والأكثر من ذلك أن أصبح السلاح فى أيديهم يتجولون به فى الشوارع . دون خوف من السلطة لأن السلطة نفسها هى التى قامت بتسليمه لهم .

كنا أغبياء !!

لقد أثبت لنا تأميم القناة .. ودخول الثورة فى معركتها خطأ موقفنا منها فى البداية .. وأن اقترابها من أمريكا كان مجرد تكتيك ذكى حتى تتفرغ الثورة لمعركتها مع المحتلين الإنجليز ، لإخراجهم من مصر . وأنه ليس من الذكاء أن تفتح جبهتين فى وقت واحد . مع قوتين كبيرتين فى حجم إنجلترا وأمريكا . التى كانت قوتها فى ذلك الوقت فى مرحلة الصعود .. تمهيدًا لاحتلال الموقع الذى كانت كل من انجلترا وفرنسا تحتلانه على خريطة الاستعمار القديم .

فكانت تتحين الفرصة لضرب انجلترا وإضعافها . وكانت الثورة فى مصر هى الفرصة التى كانت تنتظرها لإخراج انجلترا من منطقة الشرق الأوسط وإضعافها بعد ذلك . على أمل

أن تحتوى الثورة المصرية وقادتها بعد ذلك ولكن معركة بناء السد العالى وطلب مصر المعونة من البنك الدولى . ورفض أمريكا لذلك وقبلها كانت معركة كسر احتكار السلاح . بعد رفض أمريكا لتزويد مصر بالسلاح لمواجهة الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة كل ذلك أثبت لنا بما لا يدع مجالاً للشك وطنية القيادة فى مصر . وعداء الثورة لأمريكا والغرب .. فأخذنا نقترب منها أكثر متجاوزين تحفظاتنا السابقة .

لقد كانت القضية فى ذلك الوقت هى الموقف من عبد الناصر فمجموعة تقول أن التناقض الرئيسى هو بين عبد الناصر والاستعمار ومجموعة أخرى تقول أن التناقض الرئيسى هو بين عبد الناصر والشعب .. وأن التناقض مع الاستعمار مجرد تناقض ثانوى وكنت أنا مع المجموعة الأولى التى ترى أن التناقض الرئيسى هو بين عبد الناصر والاستعمار وأن التناقض مع الشعب مجرد تناقض ثانوى .

لا شك فى أن عبد الناصر كان قد وضع الشيوعيين المصريين أمام خلافات جديدة تعمق خلافاتهم الموجودة أصلاً بين معظم فصائلهم ولكنه فى نفس الوقت كان يقوم ببعض الإجراءات التى لا خلاف بيننا عليها . مثل حل الأحزاب السياسية رغم أن قرار الحل لم يتضمن الأحزاب الشيوعية .. باعتبار أن الشيوعية نظرية اقتصادية وليست سياسية «!!» ولكن حل الأحزاب كان بمثابة مؤشر لنا لاتجاه الثورة نحو الديكتاتورية والانفراد بالسلطة .

ولهذا وقفنا مع أحزاب يمينية مثل الوفد والإخوان المسلمين فى أزمة مارس الشهيرة التى حدثت فى أعقاب تنحية عبد الناصر للرئيس محمد نجيب واحتلال مكانه كرئيس للجمهورية وحين نادينا بالحرية .. خرج العمال فى الشوارع يهتفون « وتسقط الحرية »!!

كنت أكتب وقتها فى جريدة «المصرى» الناطقة بلسان حزب الوفد . ولكن كتاباتى فى ذلك الوقت كان يغلب عليها الطابع الأدبى والأيدولوجى فكتبت مع عبد العظيم أنيس لسلسلة المقالات التى نرد فيها على طه حسين الذى كان يكتب فى جريدة «الجمهورية» الناطقة بلسان الثورة وقادتها فى ذلك الوقت واعتبرنا حربنا ضد طه حسين حربًا مستترة ضد الثورة !

وأذكر أننا حين تطرقنا إلى العقاد رد علينا قائلاً : « أنا لا أناقشهما » .. ولكنى أضبطهما .. إنهما شيوعيان !!

وكتب طه حسين قائلاً فى الرد علينا « هذا أدب يونانى لا يقرأ»! وقد فهمت قيادة الثورة مقصدنا فى الهجوم على طه حسين وفى جريدة الوفد بالذات فصدر قرار بفصلنا من الجامعة مع أكثر من سبعة وثلاثين أستاذًا آخرين .. كنت أنا ولويس عوض من قسم الإنجليزى .. وعبد العظيم أنيس من كلية العلوم وعدد كبير من الأساتذة ذوى الميول الوفدية والإخوانية فى حملة تطهير راح ضحيتها عدد كبير فى مختلف الوظائف الحكومية الأخرى !

صدام مع الثورة !!

كانت كل القوى السياسية بمختلف اتجاهاتها اليمينية واليسارية تقف ضد الثورة وتطالب بعودة قادتها إلى ثكناتهم العسكرية وتسليم القيادة إلى المدنيين .. بينما كانت قيادة الثورة ترى أن السياسيين القدماء كانوا متورطين فى قضايا فساد وأنهم هم الذين أفسدوا الحياة السياسية فى مصر .

وحدث فى ذلك الوقت مظاهرات مصانع النسيج فى كفر الدوار .

حيث خرج العمال يطالبون بحقوقهم .. وكان عفيفى بن حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى على رأس الإدارة بتلك المصانع فى ذلك الوقت فركب الموجة واتجه بالعمال نحو التخريب والحرق . واتهم الشيوعيين بتلك الجرائم .. فأصدرت قيادة الثورة أوامرها بإعدام خميس والبقرى .. وهما اثنان من العمال الشيوعيين بتلك المصانع .

كان ذلك الحادث مؤشرًا على وقوف الثورة ضد الشيوعيين فلم تكن قيادة الثورة حتى ذلك الوقت قد أصدرت حكمًا بالإعدام فى حق أى أحد من خصومها حتى أولئك الذين اتهموا بالفساد فى عهد الملكية .. أو الذين ثبت تآمرهم عليها عند قيامها . وكانت تفخر ضمن ما تفخر به أنها ثورة بيضاء لم تقم على إراقة الدماء وحين أعدم خميس والبقرى اعتبرنا ذلك بمثابة إعلان الحرب ضد الشيوعية والشيوعيين . وهى التى لم تعلنها ضد أى من خصومها الآخرين على هذا النحو الدرامى .

وقد علمنا فيما بعد أن قرار الحكم بالإعدام تم فى مجلس قيادة الثورة بإجماع الأعضاء فيما عدا خالد محيى الدين ويوسف صديق وجمال عبد الناصر .

كان خالد محيى الدين ويوسف صديق ذوى ميول واتجاهات ماركسية فكان جمال عبد الناصر هو الوحيد غير الماركسى الذى لم يوافق على إعدام اثنين من قيادة العمال الشيوعيين وقد أضيف هذا الحادث إلى قائمة المواقف التى اعتبرناها معادية للديمقراطية . بدءًا من ضرب رجل القانون الشهير الدكتور السهنورى . ومظاهرات عمال النقل بقيادة رجل اسمه الصاوى ضد الحرية وهى المظاهرات التى خرجت بإيعاز من قيادة الثورة لتهتف ضد الحرية كنا مع مختلف الفصائل السياسية الأخرى - ننادى بها حتى أننا أطلقنا على تلك المظاهرات اسم مظاهرات «صوصو»سخرية من زعيمها الصاوى !

كاتب وفدى !!

وكنت أكتب فى ذلك الوقت مقالات فى النقد الأدبى ، ولكنها كانت أقرب ما تكون إلى الكتابة عن الحرية والديمقراطية حتى أن البعض اتهمنى بالابتعاد عن الجانب التكنيكى أو الفنى ولكنى كنت أتعلل بالغليان الذى يشهده المجتمع . وكيف لى أن أتحدث عن الفن والتكنيك بينما الدماء تسيل فى الشوارع !!

كنت أكتب فى جريدة المصرى ذات الاتجاه الوفدى . ولكن إحسان عبد القدوس طلب منى أن أكتب فى روز اليوسف التى كان هو صاحبها ورئيس تحريرها فى ذلك الوقت ، وكتبت فيها زاوية بعنوان « حاول أن تفهم » .. ومن العنوان تستطيع أن تدرك أننى كنت أكتب بأسلوب ملغز فيه الكثير من اللف والدوران حول المعنى الذى أقصده .

لقد استقر بى المقام فى روز اليوسف كاتبًا مع أحمد بهاء الدين وجمال كامل وحسن فؤاد وصلاح جاهين .. وكلهم كانوا يكتبون ضد الثورة . إن تلميحًا أو تصريحًا . ولكن أحدًا منهم لم يتعرض لأى نوع من المضايقات التى كنا نتوقعها فى أية لحظة حيث كان الجو فى ذلك الوقت مشحونًا بالترقب وكثير من التوجس والخوف .

في هذه الأثناء اتصل بي أنور السادات الذى كان رئيسًا للتحرر بجريدة الجمهورية الناطقة بلسان الثورة في ذلك الوقت ، وفي مكتبه التقيت بأحمد حمروش وطلب السادات منا أن نعد لإصدار مجلة «أفضل مجلة سياسية في الوطن العربي » كما قال السادات .. فوافقت واخترنا لها اسم «الفجر» وهو اسم كان سائدًا في سجلات الصحافة الشيوعية والاشتراكية في مصر في الأربعينيات . فكان أحمد رشدى صالح يصدر جريدة بنفس الاسم كذلك كان أحمد الصاوى وغيره ورغم ذلك لم يعترض أنور السادات على الاسم بل استحسنه ووافق عليه .

ونجحنا في إصدار الأعداد التمهيدية الأولى من مجلة « الفجر » وكانت بالغة الروعة . ولكن السادات طلب منا التمهل وصولاً إلى الأفضل واستمررنا في محاولاتنا حتى وقعت حرب ١٩٥٦ فتوقفنا لنتفرغ للمعركة التي فرضت علينا .

وفي الحقيقة أن علاقتنا بعبد الناصر منذ عام ١٩٥٥ وهو العام الذى شهد التحول نحو الكتلة الاشتراكية بعد مؤتمر باندونج أصبحت سمنا على عسكل كما نقول بعد صراع حاد ودراماتيكي عام ١٩٥٤ وما قبله حين تحالفت كل القوى السياسية ضد عبد الناصر حتى أن الشيوعيين بقيادة أحمد رفاعي اتفقوا مع الإخوان المسلمين بقيادة سيد قطب لإسقاط عبد الناصر واستلام السلطة بعد تنحيته عنها وحدث بعد ذلك أن حاول الإخوان المسلمون اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية وتصفية الإخوان المسلمين بعدها ولم يعد أمام عبد الناصر سوى الشيوعيين ليتخلص منهم ... وبينما كان كل طرف من الطرفين - عبد الناصر والشيوعيين ، يتربص بالآخر فإذا بأمريكا ترفض تمويل السد العالي . وإذا عبد الناصر يرد عليها بتأميم القناة . وحين رفضت أمريكا تسليح الجيش المصرى رد عليها عبد الناصر بالاتجاه شرقًا ، فحدث التحول السريع في العلاقات فاقترب عبد الناصر من الشيوعيين واقترب الشيوعيون من عبد الناصر وبلغت العلاقة قمة التقارب بينهما في حرب ١٩٥٦ .

« 5 »

كانت الديمقراطية هى نقطة الخلاف التى تقف فى أول قائمة الخلافات بيننا وبين عبد الناصر رغم كثرة المواقف والخطوات التى اتخذها عبد الناصر فى ذلك الوقت وكانت تدل دلالة واضحة على أنه إن لم يكن ديمقراطيًا فهو يتجه نحو الديمقراطية ، مثل قانون الإصلاح الزراعى وتأميم قناة السويس وغيرها من القرارات «الثورية» والتى لا يخفى على أحد محتواها الديمقراطى .

وقد أصابنا عبد الناصر بنوع من البلبلة والحيرة حتى أن خالد محيى الدين كان يسألنى إن كان عبد الناصر رجلاً ديمقراطيًا أو لا ، فكنت أجيبه بأنه غير ديمقراطى ، فكان خالد يقول ولكنه فعل كذا وكذا .

ولا شك فى أن الحيرة التى كان فيها خالد محى الدين فى ذلك ، كان لجميع الشيوعيين المصريين نصيب منها وكان فى داخل كل منا شىء يشدنا إليه . ولكن نفاجأ منه بموقف يجعلنا نقف مكاننا أو حتى نقف ضده . ربما ذلك لأنه كان يبحث عن طريق . وربما كان يقوم بتوازنات تفرضها عليه الظروف المحلية أو الدولية . بينما كنا نحن نريده إلى جانبنا بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى ، كان لنا منهجنا الجاهز الذى نقيس به الأمور ، ولم يكن لنا فى لعبة السياسة . فقد كانت لعبتنا الوحيدة هى المنهج والأيدولوجية . بينما كان عبد الناصر يخوض غمار الواقع بكل ما فيه من صراعات وتناقضات . تفرض عليه الاقتراب منا تارة والابتعاد عنا تارة أخرى ، بينما كنا نحن نريده - وفقًا لمنهجنا - نريده لنا ومعنا على طول الخط . والخط كان طويلاً جدًا . ومستقيمًا دائمًا .

صافى يا لبن !!

حتى حينما قامت حرب ١٩٥٦ كنا لا نزال على موقفنا الحائر من عبد الناصر فقد جاءنى عبد الرحمن الشرقاوى يسألنى عن موقفنا من الحرب . فقلت له بشكل قاطع وحاسم ربما لأول مرة أكون فيها قاطعًا وحاسمًا فى موقف يتصل بعبد الناصر أننا مع المقاومة

بل إننا على رأسها لأنها ليست حرب عبد الناصر ضد الغرب والاستعمار بل حربنا نحن وحرب كل المصريين بمختلف اتجاهاتهم الوطنية .

وحين توقفت الحرب – رأى عبد الناصر بذكائه المعروف – أن يستخدم الشيوعيين لجمع السلاح من أيدى المقاتلين فى بورسعيد .. حيث كان يرى أنه لو قام أنصار الثورة بطلب السلاح من هؤلاء لرفضوا تسليمه لهم . ولكن الشيوعيين هم الذين سيجمعون السلام لأنهم هم الذين قاموا بتوزيعه . وذهب أحمد الرفاعى بنفسه إلى بورسعيد لجمع السلاح لأن المناخ وقتها كان « صافى يا لبن » بين الثورة والشيوعيين .

لقد كانت أخطر مراحل الثورة ديمقراطية ، لأنه لم يكن هناك أكثر ديمقراطية من ديمقراطية حمل السلاح ، ولكن سرعان ما انتهت تلك المرحلة لندخل مع الثورة فى صدام جديد وكانت الثورة هى التى بدأت .

كنا قد أقمنا معسكرات للتدريب فى كل مكان فى مصر ، وحمل الرفاق السلاح فى أيديهم لأول مرة فى تاريخهم وأصبح ذلك يشكل خطرًا على مسيرة الثورة . حتى بعد أن جمع السلاح من أيدى المقاتلين فقد أصبحت هناك كتائب منظمة ومدربة على حمل السلاح فى أى وقت . ولم يعد ينقصها سوى السلاح لتقاتل فى الشارع . وهو القتال الذى تدربت عليه بمباركة الثورة وتأييدها . ولكن توقع الخلاف مع الشيوعيين فى أية لحظة جعل من ذلك نوعًا من الخطر الذى يهدد الثورة وقادتها . فما كان عليهم إلا أن يقوموا بضربة وقائية لإجهاض أية محاولة يقوم بها الشيوعيون ضد الثورة .

كان موقفنا من الثورة يتلخص فى تبنى فكرة التأييد النقدى ولكن بعد عام ١٩٥٥ أصبح الموقف مختلفًا . فقد أصبح موقفنا هو التأييد الكامل . وبلا نقد أو تحفظ وفى أعقاب معركة ١٩٥٦ أصدر جمال عبد الناصر قرارات التمصير الشهيرة التى تم بموجبها تمصير الشركات والمؤسسات التابعة لدول العدوان الثلاثى والدول الغربية التى ساندتها بالإضافة إلى الشركات التابعة لليهود المصريين فى ذلك الوقت .

كانت تلك القرارات استجابة لمطالبنا بضرورة ضرب المصالح الغربية والرأسمالية فى البلاد ردًا على العدوان والذين قاموا به ولهذا لم نعتبر أنفسنا فى خصومة مع الثورة

وقيادتها حين قامت بجمع السلاح من أيدى عناصرنا بل إننا نحن الذين قمنا بجمعه وتسليمه إلى رجال الثورة إثباتًا لحسن النية . ليس ذلك فقط بل تأكيدًا لقادة الثورة بأننا معهم وأن السلاح فى أيديهم هو سلاحنا ، حتى وإن كانوا لا يرون أن السلاح فى أيدينا هو سلاحهم !

وجاء عام ١٩٥٨ ليكون عام الوحدة لا أقصد وحدة مصر وسوريا ، بل وحدة الأحزاب الشيوعية المصرية .. النجم الأحمر ، وحدتو ، ونواة الحزب الشيوعى . وقد لعبت مع شهدى عطية الدور الرئيسى فى الوصول إلى هذه الخطوة التاريخية . ولهذا اختارونى لأكون رئيسًا للجنة المركزية فى الاجتماع الأول للحزب الشيوعى الموحد .

وأذكر أننا اجتمعنا لدراسة الموقف من عبد الناصر ، فرأى بعضنا وأنا منهم أن التناقض الرئيسى هو بين عبد الناصر والاستعمار وأن التناقض الثانوى هو بين عبد الناصر والشعب . ولكن فريقًا آخر كان يرى العكس وكان من نتيجة ذلك أن تم فصل المجموعة التى كنت معها والتى كانت ترى الوقوف إلى جانب عبد الناصر ومساندته . فخرج شهدى عطية وزكى مراد ومحمد شطا وأحمد رفاعى ، ولكنى لم أخرج معهم فقد كان رأيى دائمًا أن أبقى لأناضل من الداخل وصولاً إلى التغيير والتأثير الذى أنشده وأهدف إليه .

وهكذا تسبب الموقف من عبد الناصر فى إحداث أول انشقاق فى صفوف الحزب الشيوعى بعد توحيده .

وحدة فوقية

وفى عام ١٩٥٨ كثر الكلام عن مشروع الوحدة المصرية - السورية وجاءت وفود من سورية لتبايع عبد الناصر رئيسًا للدولة الجديدة ، وذهبت وفود من مصر لتستطلع الأمور وتتشاور حول عدد من المسائل الإجرائية ، وأذكر أننا أصدرنا بيانًا بتوقيع الرفيقين «سيد وفريد» نؤيد فيه الوحدة بين مصر وسوريا ولكن على أساس ديمقراطى ، حتى لا تأتى الوحدة «فوقية» فيسهل ضربها بقرار فوقى . وكان «سيد» هو الدكتور عبد العظيم أنيس . و«فريد» هو أنا محمود أمين العالم .

وقد كتبت مقالاً فى مجلة الرسالة الجديدة بعنوان « ميلاد الوطن العربى » أحيى فيه مولد الوحدة العربية الكبرى ، ولكن أعلن فيه اختلافى صراحة مع منهج تحقيقها ، حيث

لم يراع فيه الخصائص الموضوعية للمجتمع السورى وكتبت مطالبًا بتحسين شروط الوحدة ديمقراطيًا فضلاً عن مراعاة الاختلافات الاقتصادية فيما يطبق فيها من قوانين .

وفى أعقاب البيان الذى أصدرته مع عبد العظيم أنيس والمقال الذى كتبته فى الرسالة الجديدة صدر قرار بفصلى من العمل فى مؤسسة دار التحرير ومجلة الرسالة الجديدة . بالرغم من أن ما قلته كان متضمنًا تأييدًا وترحيبًا بالفكرة ولكن الاختلاف كان حول أسلوب تحقيقها فقط ، وقد ثبت صدق كلامى بعد ذلك ، بل وثبت أن هذا كان هو رأى عبد الناصر نفسه .

الحل هو الحل !!

وفى أعقاب ذلك أى فى نوفمبر من عام ١٩٥٨ . دعانى السادات عن طريق يوسف إدريس ، لأقابله فى بيته ، وقد استمر النقاش بيننا من العاشرة مساءً حتى الرابعة صباحًا . وكان حول طلب السادات حل الحزب الشيوعى المصرى وانخراط أعضائه فى الاتحاد القومى الذى هو تنظيم الثورة وحزبها فى ذلك الوقت وقد شفع السادات طلبه تلميحات تحمل التهديد والوعيد . ورغم ذلك فقد رفضت طلب السادات ولكنى رحبت بالانضمام إلى الاتحاد القومى ولكن كحزب مستقل وليس كأفراد كما كان يريد السادات ، وقلت للسادات أن الاتحاد القومى يجب أن يكون جبهة بين أحزاب تختلف فى الرؤى وتتفق فى الأسلوب والهدف . ولكن السادات رفض فكرة الجبهة . ورفضت بدورى فكرة حل الحزب والانضمام إلى الاتحاد القومى .

والطريف أننى حين عدت إلى زملائى الذين كنت أختلف معهم حول الموقف من الثورة ومن عبد الناصر وحكيت لهم ما حدث فإذا بزميل كبير منهم يقول : إن هذا اللقاء والحوار الذى دار فيه يدل على أن عبد الناصر محتاج إلينا ، وأن التناقض الرئيسى هو فعلاً بين عبد الناصر والشعب ، وإنه يريد أن يأخذنا إلى جانبه لكى يزيف هذا الصراع ويسحب البساط من تحت أقدام مناضلينا وأتوقع -كما قال زميلنا - أن عبد الناصر سوف يستدعينا بعد أيام ليس لكى يطلب منا حل الحزب ، بل لكى نشارك معه فى تشكيل الوزارة .

وبطبيعة الحال لم يستدعنا عبد الناصر للمشاركة فى تشكيل الوزارة . بل تم استدعاؤنا لنشرف السجون !! دخلت السجن مع المجموعة التى كنا نختلف معها حول الموقف من عبد الناصر فأنا كنت مع تأييده ومساندته بينما هم مع نقده ومناهضته ولكننا دخلنا السجن جميعًا مؤيدين ومعارضين .

قاسم العراق

ولكن قبل أن ندخل السجن ، كانت الثورة فى العراق قد قامت بقيادة عبد الكريم قاسم ، وهو ضابط ذو ميول ماركسية ، وقبل قيامها بأيام جاءنا أحد الرفاق العراقيين رسولاً من قبل عبد الكريم قاسم الذى لم نكن قد سمعنا باسمه حتى ذلك الوقت وقال لنا الرسول إن الثورة فى العراق سوف تقوم خلال أيام وأنها ستكون النقطة الثورية فى الحركة العربية ، وستصبح النقطة المعادية والنقيضة لنا هى مصر وعبد الناصر ، وطلب منا أن نحدد موقفنا ، إما أن نكون مع عبد الناصر وإما أن نكون مع عبد الكريم قاسم .

وعند عرض الأمر على الزملاء . حدث الخلاف الذى كان متوقعًا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى وقف أعضاء «حدتو» ضد فكرة الوقوف مع عبد الكريم قاسم ضد عبد الناصر باعتباره نقيضًا للثورة العربية .

كنا جميعًا مع الثورة الشيوعية فى العراق . ولكننا لم نعتبرها جميعًا هى النقطة الثورية الوحيدة فى الحركة العربية . بل اعتبرها بعضنا - وأنا منهم - إحدى النقاط الثورية التى يجب مساندتها إلى جانب الوقوف مع عبد الناصر وحثه على مساندتها أيضًا باعتبارها بؤرة ثورية تزكى حركة الصراع الوطنى والقومى ضد الرجعية والاستعمار . وحين عرضت فكرة الوحدة على عبد الكريم قاسم ، كان يرى أن تكون الوحدة كونفدرالية وليست اندماجية على غرار الوحدة مع سوريا . وخرجت المظاهرات فى بغداد تهدف «جمهورية لا إقليمية» بمعنى أن يحتفظ العراق باسمه وأن تحتفظ سوريا ومصر باسميهما كجمهوريات داخل اتحاد كونفدرالى .

وكانت مصر قد ألغت اسمها الذى تحول إلى الإقليم الجنوبى . وتحولت سوريا إلى الإقليم الشمالى وكان مقترحًا أن يتحول العراق إلى الإقليم الشرقى فى مشروع الوحدة

الجديد . ولهذا رفض العراقيون اسم «الإقليم» الشرقى ونددوا بالإقليمية . مطالبين ببقاء اسم الجمهورية العراقية الذى اتخذته لنفسها بعد قيام الثورة وإلغاء الملكية فيها .

وكان موقف العراق وعبد الكريم قاسم هو الأقرب إلى موقفنا من قضية الوحدة . حيث كنا نطالب بأن يحتفظ كل إقليم بخصائصه داخل إطار كونفدرالى بينما كان عبد الناصر يرى ضرورة الوحدة الاندماجية تحت زعامته .

وقد دخل الاتحاد السوفيتى طرفًا فى الصراع الدائر حول مفهوم الوحدة فأيد خرتشوف عبد الكريم قاسم الذى كان ينادى صراحة بالشيوعية ضد عبد الناصر الذى لم يكن قد أصبح اشتراكيًا بعد . إذ حدث ذلك كله قبل قرارات التأميم الشهيرة التى اتخذها عبد الناصر عام ١٩٦١ .

وفى ديسمبر من نفس العام ١٩٥٨ ألقى عبد الناصر خطابًا فى بورسعيد بمناسبة عيد النصر ، هدد فيه وتوعد من أسماهم بأعداء الثورة . وكان يقصدنا بالتحديد . إذ كان الإخوان المسلمون قد قضى عليهم تمامًا ولم يعد فى الساحة السياسية غيرنا نحن وكنا مصدر قلقه الوحيد خاصة بعد أن قامت الثورة الشيوعية فى العراق ، وقد رأى عبد الناصر أنها ستشعل الحماس فينا للتحرك ضده والانقلاب عليه . خاصة وأن الاتحاد السوفييتى كان هو الآخر قد دخل دائرة الصراع معه بعد انقضاء فترة شهر العسل بينهما إبان حرب ١٩٥٦ ، وبذلك أصبحت الظروف الدولية والإقليمية والمحلية معنا ، الأمر الذى زاد من اشتعال الموقف بيننا وبين ثورة يوليو فى ذلك الوقت .

« 6 »

حين ذهبت إلى السادات فى بيته بناء على دعوته التى تلقيتها عن طريق يوسف إدريس . بدأ السادات كلامه معى مهددًا بالقول : إنهم نجحوا فى التخلص من الإخوان المسلمين . ولم يعد فى الساحة غيرنا ويمكن فى لحظة واحدة أن نحشر جميعًا فى زنزانة واحدة !

قلت للسادات : اسمع يا أستاذ أنور - إذ كان وقتها زميلاً زيعمل صحفيًا بجريدة الجمهورية - إذا كان كلامك معى سيبدأ هكذا بالتهديد فدعنى أنسحب فى هدوء !

تأسف السادات وقال إنه كان يضحك معى . ثم طلب منى أن نحل الحزب الشيوعى وندخل كأفراد فى تنظيم الاتحاد القومى . فقلت له إننا مستعدون للدخول فى الاتحاد القومى . لكن كحزب وليس كأفراد . وبذلك يصبح عندكم جبهة بدلاً من أن يكون لكم حزب واحد . فاعترض السادات على فكرة الجبهة قائلاً إن من حق عبود باشا أن يدخلها أيضًا بحزبه (كان عبود باشا من كبار الرأسماليين فى مصر) فقلت له إنها ستكون جبهة بين أحزاب وطنية ديمقراطية فهناك أحزاب للفلاحين وأحزاب للعمال وحزب الوفد . وحتى جماعة الإخوان المسلمين .

رفض السادات الفكرة قائلاً : إن دخول الاتحاد القومى كأحزاب سيحيله إلى مجموعة من التكتلات التربيطات أو التحالفات التى ستجعل مصلحة الأحزاب فوق المصلحة الوطنية ولكن الدخول كأفراد سيجعل من السهل الحوار بينهم والوصول إلى صيغة للتفاهم بتذويب الآراء والمواقف فى رأى واحد وموقف واحد .

محاولة يائسة

استمر الحوار هكذا بيننا ساخنًا تارة وفاترًا تارة خرى وحينما لم يجد السادات حلاً معى . ووجدنى مصرًا على فكرة المحافظة على الحزب وعدم حله قال لى فجأة : اسمع نحن نريدك أنت . ودعك من الآخرين . لماذا لا تدخل معنا وحدك ؟!

قلت للسادات إننى لا أتحدث معك الآن بصفة شخصية ولكنى أتحدث بصفتى واحدًا من ثلاث قيادات للحزب (أنا وفؤاد مرسى وأبو سيف يوسف) ولا أستطيع الانفراد بقرار دون بقية زملائى بالحزب وقياداته .

كانت الساعة قد وصلت إلى الرابعة صباحًا حين أنهى السادات مقابلته معى ولما خرج ليوصلنى إلى الباب الخارجى اعتذر بأن السائق نائم . وضحك وهو يقول : أنت برولتارى وتستطيع أن تروح إلى بيتكم سيرًا على الأقدام !!

وصلت إلى البيت فى السادسة صباحًا وطوال الطريق كنت أفكر فيما دار بينى وبين السادات من حوار . وكيف أنه أراد أن يضرب الحزب بى ، ويضربنى بالحزب . بمحاولة استدراجى وحيدًا للدخول فى الاتحاد القومى وتهديده لى بالاعتقال على غرار ما حدث لقيادات الإخوان المسلمين .

توقعت أن تحدث موجة جديدة من الاعتقالات بين صفوفنا ، فذهبت إلى البيت لأعد خطة لنزول بعض عناصرنا تحت الأرض وطريقة النضال بدون قيادة وترشيح بعض الأسماء التى ستتولى قيادة الحزب بعد دخول قياداته إلى المعتقل .

لم يكن سهلاً علينا أن نعود إلى النضال السرى بعد أن كشفنا غالبية عناصرنا أثناء العدوان الثلاثى على مصر وما صاحبته من ظروف مصالحة مع السلطة وكان علينا أن نتحرك بسرعة وفقًا لخطة محكمة وضعت بعض ملامحها المهمة فى بعض الأوراق على مكتبى .

وعند عرض الأمر على بقية زملائى من قيادة الحزب . استبعد أحدهم فكرة الاعتقال تمامًا ، بل إنه توقع أن يستدعينا عبد الناصر لنشارك فى تشكيل الوزارة الجديدة بعد أن استخلص بتحليله أن عبد الناصر أصبح فى أمس الحاجة إلينا ، ولم يعد يستطيع تسيير الأمور بدوننا وأن لقائى مع أنور السادات وطلبه حل الحزب والدخول معهم فى تنظيم الثورة هو دليل على ذلك !! ولكن سرعان ما تحققت نبوءتى حين بدأت موجة جديدة من الاعتقالات ففى صباح أحد الأيام فتحت الباب فإذا بى أمام جماعة من رجال الأمن تطلب الدخول لتفتيش البيت . فسمحت لهم للدخول . وتذكرت على الفور تلك الخطة التى

وضعتها على مكتبى للدخول فى مرحلة النضال السرى . وبينما هم مشغولون فى البحث عن بعض الأشياء تمكنت من تناول الخطة وطبقتها ووضعتها فى كم قميصى وتحت حزام الساعة . وبعد أن أخذوا معهم بعض الكتب والمقالات . سألنى أحدهم إن كان عندى نسخة من البيان الشيوعى .. فأشرت له إلى مكانه بالمكتبة فخرجنا وهو يعتقد أنه عثر على صيد ثمين !!

ذهبت إلى سجن «قرة ميدان» وهناك طلبت أن أدخل دورة المياه وفيها تخلصت من الخطة التى خبأتها تحت الساعة فى معصمى .

اسمى بالدم !

وحين خرجت وجدت أمير إسكندر وسط عدد من الحرس يريدون خلع ملابسه المدنية وإلباسه ملابس السجن وهو يقاومهم . فدخلت مع الحرس فى اشتباك بالضرب وأصبت أحدهم فى رأسه فحولونى إلى مأمور السجن الذى أمر بإحالتى إلى الطبيب ومعى الحارس الذى أصبته فأمر الطبيب وهو ضابط أيضًا بجلدى سبع جلدات وتحويلى إلى السجن الانفرادى لمدة خمسة وعشرين يومًا .

دخلت إلى أسوأ مكان رأيته فى حياتى رائحة كريهة وحشرات تتساقط على رأسى من السقف وتزحف على جسدى من الأرض أنواع غريبة من الحشرات استطعت أن أميز نوعين منها فقط . وهما البق والقمل !!

قررت أن أكتب اسمى على حائط الزنزانة بالدم . ليس دمى أنا لكن دم البق الذى دخلت فى حرب معه متوهمًا أنه فى إمكانى أن أتخلص منه .. وفى هذه الزنزانة عشت أسوأ أيام حياتى . ولازلت أشعر بالرغبة فى هرش جسمى كلما تذكرتها !!

تقرر نقلنا إلى سجن الحضرة بالإسكندرية وهناك دخلت الزنزانة وحدى لأستكمل مدة الحبس الانفرادى المحكوم على بها فى سجن قرة ميدان .

وبقينا فى سجن الحضرة انتظارًا للمحاكمة بتهمة مناهضة النظام والتآمر ضد دولة الوحدة وإشاعة البلبلة فى صفوف الجماهير إلى آخر تلك التهم المعروفة منذ ذلك الوقت وحتى الآن !

كان أخي شوقي أمين قد استدعى لى محاميًا مشهورًا ليدافع عنى وقد وقف هذا المحامى المشهور محاولاً نفى تهمة الشيوعية عنى قائلاً . إننى لم أذكر كلمة ماركسى أو كلمة شيوعية فى مقالاتى !

انقلاب ضد الثورة

استبعدت هذا المحامى السخيف رغم شهرته وطلبت أن أتولى أنا الدفاع عن نفسى وعن زملائى فقلت إننا شيوعيون ونفخر بذلك بل إننا قيادات شيوعية تؤمن بالوطن وبالتقدم وتتبنى أهداف الثورة وتعمل من أجل تحقيقها ولكن خلافنا معها فقط حول الأسلوب والطريقة وأننا حملنا السلاح دفاعًا عن الوطن فى حرب ١٩٥٦ .

وقبل أن أدخل المعتقل تذكرت واقعة حدثت معى حين جاءنى أحد الصحفيين من زملائى بروز اليوسف وقال لى إن هناك بعض الضباط الذين يدبرون القيام بانقلاب عسكرى ضد عبد الناصر ويريدون التعاون معى كمستشار سياسى لهم . فتظاهرت بالموافقة ولكنى وقعت فى حيرة شديدة هل هى حيلة من السلطة لمعرفة رأيى واختبار نواياى تجاه الثورة أم أن الموضوع حقيقى ؟ وكيف أتصرف فى الحالتين ؟!

قررت الذهاب إلى خالد محى الدين وحكيت له الموضوع وطلبت رأيه . فقال لى أنه سيبلغ السلطات بالواقعة . وطمأننى بأننى أديت ما على من واجب وأنه لن يكون هناك ضرر .

وقد قصصت تلك الواقعة على القاضى الذى كان يحاكمنى . دليلاً على حسن نوايانا تجاه الثورة ودفاعنا عنها وعدم التآمر عليها . وأن نقدنا لها هو فى مصلحة الثورة ومصلحة مصر كلها .

وبعد شهرين حملونا فى سيارات إلى سجن قرة ميدان بالقاهرة . وفى الطريق كنا نتغنى بكل ما نعرفه من أغنيات وطنية فى حب مصر .

وبعد يومين فى قرة ميدان حملتنا السيارات التى اتجهت بنا شمال القاهرة . كان بعضنا يعرف الطريق جيدًا لأنه قطعه قبل ذلك مرات عدة إنه الطريق إلى سجن ابى زعبل .

حاول هؤلاء أن يبثوا الطمأنينة فى نفوسنا . قائلين بأن لهم هناك جذورًا . ويعرفون بعض الضباط والجنود الذين سيسهلون لنا الأمور ويحسنون استقبالنا فى المدة التى سنمضيها هناك انتظارًا لصدور الأحكام .

وصلت السيارات إلى سجن أبو زعبل وطلب أن ينزل ثلاثة منا أولاً . فنزل فؤاد مرسى وعبد المنعم شتلة وأنا وما هى إلا لحظات حتى فوجئت بفؤاد مرسى يجرى ويقع . ثم يقوم ليجرى ويقع هكذا . وفوجئت بأن أحد الجنود كان يركب حصانًا ويمسك فى يده سوطًا يضرب به فؤاد مرسى بينما كان يجرى وراءه كلب ضخم يحاول أن ينهش ساقه .

اندهشت لما يحدث لفؤاد مرسى . ولم أكن أدرى أنه يحدث معى أنا أيضًا . كرباج على ظهرى . وكلب على قدمى . فإذا هربت من أحدهما فلن أهرب من الآخر . ومنذ هذه اللحظة تعلمت أنه حين يقع لى شئ مهول لا طاقة لى على تحمله فلابد أن أفكر فى شئ آخر يخفف عنى تأثيره الفظيع على نفسى . فقلت لنفسى حينها . أننى لم ألعب رياضة منذ ثلاثة أشهر وقد حان الوقت الذى أعود فيه إلى ممارستها . والجرى هو أفضل وسيلة للرياضة . والرياضة هى أفضل وسيلة للنشاط وهكذا كنت أفكر محاولاً الابتعاد بذهنى عما يحدث لى ولزملائى . خاصة فؤاد مرسى الذى كان مصابًا بانفصال الشبكية ويخشى عليه من عواقب ما يحدث له الآن .

وبعد فترة لا أعرف قدرها . ولكنها كانت بطول الدهر نفسه وجدتهم يلقون بى فى مكان مظلم . أكاد لا أرى فيه إصبع يدى . ثم مر بعض الوقت حين سمعت صوت ضحكات تأتى من نهاية المكان تصورت فى البداية إنها طريقة جديدة للتعذيب وذهبت زاحفًا ناحية مصدر الصوت فإذا بى أمام فؤاد مرسى وعبد المنعم شتلة وهما يضحكون على شكلى الذى أصبح مسخة .. وحين نظرت إليهما ضحكت أنا الآخر .

ودخلنا فى نوبة من الضحك الهستيرى !!

وبهذه الضحكات نجحنا فى كسر ما يسمى «باصطياد الإنسان» إنهم كانوا يحاولون اصطياد الإنسان فى داخلنا ولكننا بالضحك كنا نعلن فشلهم . ونجاحنا فى الاحتفاظ بالإنسان فى داخلنا .

كنت أشعر فى داخلى أننى أحسن من الذين يأمرون بتعذيبى وأن الحق معى . كان الضابط يقول للعساكر : إن هؤلاء المعتقلين ملحدون . ويمارسون الجنس مع إخواتهم . ومشهورون دوليًا . ويأكلون أشهى المأكولات ويشربون أفضل المشروبات .

كنت أشعر بينى وبين نفسى أن العساكر أيضًا مقهورون ومضللون . كانوا يضربوننى قائلين : انت يا أبو نظارة . يا ابن العمدة . فكأنهم يضربون فى العمدة أو يضربون طبقتى . ولا يضربوننى أنا لشخصى .

كنت أتأمل ذلك وأسعد بالوصول إلى مثل هذا المغزى من وراء ما يحدث لنا إنهم يضربون فى طبقتى التى كانوا يعادونها . لست رومانتيكيًا ولنها الحقيقة التى توصلت إليها حينئذ .. كان العسكرى يقول وهو يضربنى :

يا الولاد الكلب .. ياللى بتأكلوا المهلبية الصبح بالمعالق ..! أذكر أننى حين كنت فى الزنزانة الانفرادية اياها ، حل يوم مولدى فى ١٨ فبراير . ولم أكن اتذكره . فإذا بالزملاء قبل أن يصعدوا للجبل ليبدأ عملهم فى تكسير أحجار البازلت . كانوا يمرون على زنزانتى . ويقول كل منهم بصوت خفيض : كل سنة وانت طيب يا أبو حنفى ، فبكيت حين تذكرت يوم ميلادى . فلماذا لا أقاوم ؟ والأغرب أن رفيقًا من الرفاق «النوبتجية» الذين يبقون بالسجن للقيام ببعض أعمال النظافة فلا يصعدون إلى الجبل مع بقية الزملاء ، اقترب من الزنزانة ورمى لى نصف رغيف قائلاً كل سنة وانت طيب ، فكانت أعظم هدية تلقيتها فى إحدى المرات التى احتفلت فيها بعيد ميلادى .

لقد كان لنا زميل من الفلاحين اسمه صابر البياع كان يتطوع لتلقى الضرب عن زميله !

فلماذا لا نقاوم وسط هذا الإحساس العميق بالزمالة والتكافل وحمل والرسالة .

كنا نتسابق فى قهر وكسر «اصطياد الإنسان» .. بعض الزملاء لم يكن يحتمل الألم وكنت أحترمهم ونحترم ضعفهم ونلتمس لهم الأعذار ونوجد لهم المبررات . لكن معاناة الألم وتخطيه بأشكال مختلفة من التجاوز كان ممكنًا لأنه كان ضروريًا .

وقد حكيت فى مقدمة كتابى «مفاهيم وقضايا إشكالية» كيف كان المرء يقف بالساعات أمام الحائط فى موقف من مواقف التعذيب التى كنا نتعرض لها .. كيف يمكن احتمال ذلك ؟ أنا كنت أحول الحائط إلى شاشة سينما . فأزيل الحائط وأضع مكانه عالمًا من الحواديت والقصص والألوان والفلسفات والرؤى . فكنت أهزم الحائط بالحلم والتجاوز ، فكنت أبعده عنى حتى لا أتحول أنا نفسى إلى جدار .!

« 7 »

لقد دخلت السجن وبقيت طوال الوقت مع المجموعة التي اختلفت معها حول عبد الناصر وهي المجموعة التي كانت تقول أن التناقض الرئيسي هو بين عبد الناصر والطبقة العاملة وأن تناقض عبد الناصر مع القوى الاستعمارية هو تناقض ثانوي ، .بينما كنت أرى العكس من ذلك وكانت مجموعة «حدتو» ترى رأيي ولهذا فصلوهم من الحزب بينما بقيت أنا لأنني كنت «حنبليًا» من الناحية التنظيمية .. بمعنى أنني رأيت التمسك بالبقاء في التنظيم مهما كانت خلافاتي النظرية أو الأيديولوجية مع أطرافه .

مع عبد الناصر كلية ؟!

وبينما نحن في السجن وفي عام ١٩٦١أصدر جمال عبد الناصر قرارات يوليو بتأميم الشركات والمؤسسات الاقتصادية فوجدت أنها أكبر من برنامج الحزب الشيوعي وفيها الكثير من التجاوز له فقررت أن أترك حنبليتي التنظيمية وأنظم للمجموعة الأخرى التي كنت معها فكريًا ونظريًا ولكني تخليت عنها تنظيميًا حين صدر قرار بفصلهم .

إن مجموعة «حدتو» أقصد مجموعة الحزب الشيوعي الذين فصلوا وكان منهم قيادات كبيرة مثل شهدي عطية وزكي مراد ومحمد شطا وأحمد رفاعي . كانت مع إجراءات التأميم التي أصدرها عبد الناصر عام ١٩٦١ .

وقد عدت للتفكير مرة أخرى وسألت نفسي ماذا يمثل عبد الناصر ؟ وكانت الإجابة : إنه لا يمثل الطبقة العاملة على نحو قاطع ، ولكنه يتخذ الإجراءات التي تصب في مصلحة الطبقة العاملة على نحو قاطع .. إذن الطبقة العاملة أصبح لها تأثير في القرارات التي تتخذها القوى الوطنية الديمقراطية في البلدان النامية .

ومنذ صدور تلك القرارات وحتى خروجنا في عام١٩٦٤ كنا في مؤتمرات وندوات داخل السجن حول الموقف من جمال عبد الناصر . وحين صدر الميثاق قمنا بتحليل وتفصيص بنوده ووصلنا إلى أن الميثاق ذو طبعة اشتراكية واضحة . وكتبنا فكرة «المجموعة

الاشتراكية» .. كتبها بهيج نصار وقلنا أن المجموعة التى تحكم فى قمة السلطة هى مجموعة اشتراكية غير علمية ولكنها متأثرة بالواقع الموضوعى فى مواجهة الكثير من التحديات وفى مؤتمراتنا الدائمة داخل السجن ناقشنا كثيرًا من التجارب المماثلة فى العالم ، تجربة كوبا مثلاً التى اندمج فيها الحزب الشيوعى مع حركة كاسترو ذات التوجهات الوطنية والديمقراطية . وقلنا إنه كان يجب علينا أن نفكر وأن نبدع فكرًا خاصًا بنا يتناسب مع ظروفنا . فى ذلك الوقت كان كثير من الأحزاب الشيوعية فى الدول النامية يندمج مع الأحزاب الوطنية لتكوين ما يسمى بالحزب الثورى الذى يلعب فيه الماركسيون دورًا فعالاً ومؤثرًا .. لأن فى مثل تلك البلاد يصعب على الجماهير أن تقبل بفكرة الحزب «الشيوعى»خاصة أن للدين فيها دورًا مؤثرًا مثل بلادنا .

وبدأت الاتصالات بنا من خارج السجن وأذكر أننى يوم أن أصدر جمال عبد الناصر قرارات التأميم كتبت رسالة له لم أطلب فيها الإفراج عنى ولكنى قلت له أننى أحيى قراراته الاشتراكية ولكنى أرى أنها إجراءات فوقية ولابد أن تدعم بحزب اشتراكى يلعب فيه الاشتراكيون دورًا أساسيًا . اما أن تبقى هكذا فى ظل الاتحاد القومى فسوف تظل معرضة للضرب والإجهاض .

لم يكن قد صدر قرار بحل الاتحاد القومى وتكوين الاتحاد الاشتراكى بدلاً منه للتخلص من كثير من العناصر اليمينية والرجعية والاعتماد أكثر على العناصر الوطنية والتقدمية .

أين الماركسية ؟!

فى ذلك الوقت كنا نشعر بأن هناك صراعًا فى السلطة وأن بها قوى اشتراكية متقدمة تتحالف مع الاتحاد السوفيتى ، وتشتبك فى معارك حادة مع الاستعمار وتقوم ببعض الإجراءات والإنجازات الحاسمة طبقيًا فى الداخل ، وأن قوى بها الشكل ينبغى أن نلتحم معها فى إطار واحد يجوز تسميته «بالحزب الثورى» أو تحت أى مسمى آخر لقد علمتنا التجربة المرة أن الأسماء لا تهم ولكن العمل والإنجاز هو الذى يجب أن يعيننا أكثر من غيره .

وتساؤل بعضنا : ولكن أين الماركسية اللينينية فقلنا نبعث لجمال عبد الناصر نقول له إننا نرحب بالاندماج معكم ولكن على أساس الاشتراكية العلمية وإذا كان هناك رفض

لكلمة الاشتراكية العلمية أو تحسس منها فلنتكلم عن صراع الطبقات وقيادة الطبقة العاملة والمنهج الجدلى والرؤية العلمية للحياة .. إذن نحن مستعدون للاندماج لو وافقوا على هذه المبادىء التى هى الماركسية .. والهدف هو إقامة بنية اشتراكية خالية من الاستغلال والظلم.

ماذا أفعل وأنا المصرى الذى ينتمى للتقدم دون الخضوع لمسلمات وقوالب أبدية ؟ كنت أقتنع يومًا بعد يوم بضرورة الإبداع بما يتناسب مع واقعنا وظروفنا وعدم الاستسلام لتجارب الآخرين وواقعهم ولهذا فإن حل الحزب الشيوعى والاندماج فى تنظيم السلطة الوطنية الديمقراطية ، حتى وإن اتفقنا أنه كان إجراء خاطئًا ، إلا أنه لم يكن يعبر عن ضعف أو هزيمة أو خوف ، بل كان تعبيرًا عن جسارة فكرية وإبداع نضالى . ولذا فإن حل الحزب - لو كنا قبلناه - كان عملاً نضاليًا . قلنا إننا يجب أن نندمج ولكن بشروط معينة ، وهى المبادىء الماركسية اللينينية بدون تسميتها بذلك ، لأن المهم أن نحمى المجموعة الصغيرة التى فى السلطة ، وفى علاقتنا مع السلطة نستطيع أن ننمى الوضع فى مصر ونواجه أعداءها .

لم يكن ذلك خضوعًا أو استسلامًا منا ، أو بتأثير سنوات السجن علينا . أو رغبة فى الخروج منه . لأن ذلك كان هو موقفنا عام ١٩٥٥ فى البيان الشهير الذى أصدرناه وأنهاه أحد «الأذكياء» منا بعبارة « وإن هذا هو السبيل لإسقاط الديكتاتورية العسكرية » !!

ولكى أكون واضحًا - أمام التاريخ - إن ذلك لم يكن موقفنا جميعًا . فقد كانت هناك مجموعة شيوعية أخرى لا تزال تغالى فى عدائها لعبد الناصر . وتشكك فى إجراءاته الثورية التى اتخذها . فمثلاً إجراءات التأميم التى أضرت كثيرًا بمصالح الطبقة الوسطى ، اعتبرها الطرف الآخر فى مصلحة الاستعمار ، بل وفى مصلحة التخلف ، فقد قال أحدهم أن ضرب البرجوازية المتوسطة أو الإضرار بمصالحها هو ضرب للجبهة . وضرب الجبهة يعنى ضرب التقدم .. وإن عبد الناصر يصدر الميثاق بينما هو يعتقل الشيوعيين لمصلحة الاستعمار وتحقيقًا لهدفه وبذلك يكون عبد الناصر مجرد عميل صغير للاستعمار !!

هذا بالرغم من أن تلك الإجراءات التى قال صاحبنا أنها ضرب للتقدم كانت أكبر مما جاء فى برنامج الحزب الشيوعى نفسه . فلن تكن فى برنامج الحزب تلك الرؤية للمتغيرات الزراعية التفصيلية المحددة ، ولم يكن فى برنامجنا هذا الحجم الضخم لتأميم التجارة

الخارجية الذى وصل إلى ٧٥٪ منها كما أن ضرب الفئات الاجتماعية العليا حتى مستوى الطبقة الوسطى كان أكبر من برنامجنا الذى تضمن ضرب الفئات العليا فقط . أى القشرة العليا من المجتمع .

وأذكر أننى غضبت غضبًا شديدًا حين قال خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعى السورى فى ذلك الوقت أن التأميمات التى قام بها عبد الناصر تصنع تراكمًا سريعًا لما يسمى برأسمالية الدولة الاحتكارية . وقد وافق أبو سيف على ذلك ، ومعه عدد من الزملاء ، رغم أنهم كانوا خارج المعتقل بينما كنت أنا الذى أؤيد تلك الخطوات الناصرية . وأعتبرها ثورية أقوم بتكسير الحجارة فى أبو زعبل !!

تحول ديمقراطى !!

وحينما خرجنا من السجن تحول الذين كانوا يعادون عبد الناصر ويزايدون عليه قائلين برأسمالية الدولة الاحتكارية إلى نفس الموقف الذى كنا قد انتهينا إليه ونحن داخل السجن . أى حل الحزب والاندماج كأفراد فى بنية السلطة وتنظيمها الرسمى .

لقد كان هذا الموقف الجديد ثمرة لحوارات وجدل طويل فى داخل السجن وخارجه تمت بطريقة ديمقراطية بالغة . بعد صراعات ومناقشات فكرية طاحنة . لم يكن دافعها هو الرغبة فى الانعتاق والحرية ، بل كان دافعها الأول هو التفكير فى مصلحة الوطن واتخاذ الموقف السليم إزاءها .

ولا يفوتنى بطبيعة الحال أن أذكر أن أكثر المعتقلين تعرضًا للعذاب والإيذاء كانوا أولئك الذين يؤيدون عبد الناصر ويتحمسون لحل الحزب والاندماج فى السلطة . ولا يدل ذلك إلا على أن بعض القوى داخل جهاز الدولة كانت ضد التقاء عبد الناصر مع الشيوعيين والتفاعل معه ، وتريد تحويلنا إلى قوة معادية له .

إن ثورة يوليو هى أعلى موجة من موجات حركة التحرر الوطنى فى مصر ، والتى بدأت بعمر مكرم ومحمد كريم وأحمد عرابى ومصطفى كامل ثم الجوانب المتقدمة فى ثورة

١٩١٩ وحركة العمال والطلبة عام ١٩٤٦ وصولاً إلى ثورة يوليو ، التى تمثل قمة تلك الحركة الوطنية المصرية .

إن الحكم على السلطة - أية سلطة - لا ينبغى أن يتم من خلال موقف هذه السلطة من قضية الديمقراطية الشكلية فقط ، بل ينبغى أن ينطلق الحكم على السلطة أساسًا وفى المقام الأول من خلال موقف هذه السلطة من الإمبريالية العالمية .

لقد وجدنا فى تحليلنا - المتأخر بعض الشىء - أن هناك مواقف ملموسة من عبد الناصر ضد الاستعمار ، فهو أول رئيس مصرى يسعى للخروج من الهيمنة الإمبريالية . ولديه مشروع للخروج من الهيمنة الاقتصادية ، وله توجه اجتماعى فى ضرب كبار الملاك زراعيًا وصناعيًا . كل تلك الإنجازات كانت ذات عمق ديمقراطى ، لأنها تدفع بقوى جديدة للمشاركة فى العمل السياسى . قوى غير مهيكلة وغير منظمة ، ولكنها تؤكد وجود زخم جماهيرى يتحرك ، وحيوية اجتماعية معادية للاستعمار والتخلف والإقطاع .

جهاز الدولة المعادى !!

قد تكون هناك نقيصة ديمقراطية .. ولكن ماركس قال إن أية ثورة تستولى على السلطة بدون أن تحطم جهاز الدولة . فإن هذا الجهاز سرعان ما يستولى على الثورة . وهذا ما حدث فى ثورة يوليو ، حين استولت على السلطة ولكنها لم تحطم جهاز الدولة القديم بل استخدمته فى تحقيق أهدافها الجديدة . ولكنى أزعم أن الموقف المغلوط والمخطىء الذى وقفناه عام ١٩٥٤ من الثورة وعبد الناصر هو الذى حدد الشكل الديمقراطى للثورة ، فقد اجتمعت كل القوى السياسية عام ١٩٥٤ أثناء أزمة الديمقراطية الشهيرة ضد عبد الناصر . دخلنا فى معركة معه وعلى رأسنا خالد محى الدين ويوسف صديق إلى جانب سيد قطب وفؤاد سراج الدين فى جبهة ديمقوقراطية ضده والحقيقة أقول أن كمال عبد الحليم قد تنبه إلى هذا الخطأ مبكرًا حين قال لنا يا جماعة أنتم تتحركون فى ثورة مضادة .

لقد كنت فى ذلك الوقت من أشد الناس عداء للثورة ولعبد الناصر وكنت أقول لابد أن يعود العسكر إلى ثكناتهم العسكرية ، ولابد من عودة الأحزاب إلى الحكم . إلى غير ذلك مما ثبت الآن خطؤه .

والذى حدث أنه بعد وقوف كل تلك القوى ضد عبد الناصر أن انقلب الموقف . فبعد أن كانت هناك إمكانية لقيام جبهة مع عبد الناصر ومن خلال «حدتو» بالذات . ضربت الفكرة . بعد أن نجح عبد الناصر فى استعمال جهاز الدولة القديم فى ضرب خصومه واحدًا بعد الآخر ، وخرج من المعركة منتصرًا فلماذا يقيم الجبهة أو يتحمس لها وهو الذى حقق الانتصار بدونها ؟

هذا هو السبب - فى رأيى - الذى جعل عبد الناصر ينفرد بالسلطة وحده - وكنا نحن - بكل أسف - وبموقفنا الخاطىء معه الذى حددنا له هذه الطريقة ليسير فيها . بعد أن بحث حوله فلم يجد غيره .

لقد كانت «حدتو» هى أكثر الفصائل الشيوعية اقترابًا منه ، وكانت مرشحة للالتحام معه ومساندته ولكننا لم نترك لها المجال لعمل ذلك . فقد شارك ضباط «حدتو» خالد محى الدين ويوسف صديق وأحمد فؤاد وكمال رفعت فى وضع الأهداف الستة لثورة يوليو وساهموا فى النجاح بإعلانها وشاركوا أيضًا فى وضع قانون الإصلاح الزراعى الذى وضع حدًا أقصى للملكية الزراعية لأول مرة فى مصر .

إننى - باختصار - أعتقد أن ضعف الحركة الشيوعية وتحالفها ضد عبد الناصر سنة ١٩٥٤ هو الذى لعب الدور الأكثر تأثيرًا فى انتهاج عبد الناصر لأسلوب الانفراد بالسلطة الذى سار فيه بعد ذلك . لقد كان الأقرب إلينا ، وكنا الأقرب إليه من كل الفصائل السياسية الأخرى ، ومع ذلك تحالفنا مع الإخوان والوفد ورفضنا التحالف معه . بينما كان الوفد والإخوان أبعد علينا منه بكثير . وكنا الأقرب إليه منهم بكثير أيضًا .

« 8 »

لقد تحالفنا مع من هم أقل من عبد الناصر . ورفضنا التحالف مع من هو أقرب إلينا منهم وأذكر أننا فى عام ١٩٥٦ حملنا السلاح مع عبد الناصر ودخلنا معه فى صلات مباشرة كانت قضيتنا هى الاندماج مع بنية الثورة لكى نتمكن من التغيير ولكن نتيجة لضعفنا الجماهيرى والتنظيمى ، وانقسامنا هذا من جانب ومن جانب آخر نتيجة لإحساس عبد الناصر أنه نجح بجهاز الدولة القديم وبدوننا .. بل وبالرغم من عدائنا له نجح فى تحقيق أهدافه إلى حد كبير ونحن المسئولون عن ذلك مسئولون عن صياغة تلك اللحظة التاريخية بالشكل الذى رأيناه بها .

بصراحة - ورغم كل شىء أرفض أن أقول إن دولة عبد الناصر كانت دولة بوليسية لأن بنية الدولة فى عهده كانت بنية وطنية معادية للاستعمار ولكنها كانت ذات طابع علوى أو حتى استبدادى ولم تكن البوليسية هى الصفة الغالبة عليها .

نحن المسئولون !!

ولا شك فى أننا مسئولون عن هذا الطابع العلوى فى دولة عبد الناصر فمجلس قيادة الثورة كان عبارة عن جبهة غير متجانسة فى أفكارها ولكنها متحدة فى أهدافها .. كان فيها اليمين المتشددة الذى مثله الضباط أو الميول الإخوانية الواضحة وفيها الشيوعيون اليساريون ويمثلهم الضباط ذوو الميول الماركسية وفيها أيضًا الضباط الوطنيون المستقلون وكان يمثلهم عبد الناصر ومعه عدد ضئيل من الضباط الآخرين .

هذه الجبهة غير المتجانسة لم تتمكن من تحطيم جهاز الدولة القديم لأنها لم تكن حزبًا ، ولم تصنع حزبًا ولأنها حركة عسكرية دون قاعدة حزبية كان من الممكن أن نكون نحن حزبها الذى يحطم جهاز الدولة ويقوم بالإنجازات الثورية التى كنا نهدف إلى تحقيقها .

وفى رأيى أننا إذا لم ننظر إلى الظاهرة التاريخية فى تفاعلاتها وصراعاتها فلن نستطيع أن نصدر حكمًا صحيحًا بشأنها .. إن الحكم على أية ظاهرة لا يكون بالنظر إليها فى ذاتها

وهذا يجعلنى أقول إن قدرة البرجوازية الصغيرة على تشكيل حزبها يتوقف أولاً على السياق والظروف التى تتحرك فيها ففى الصين مثلاً تكون حزب للبرجوازية الصغيرة وحزب الوفد عندنا كان فى قاعدته حزبًا للبرجوازية الصغيرة ولابد إذن من الأخذ بكل الظروف والملابسات التى تتحرك فى وسطها الظاهرة محل الدراسة ولذلك أقول إنه لو كان لدينا حزب شيوعى قوى فى البدايات الأولى لثورة عبد الناصر لتغير المسار تمامًا . مسارنا نحن ومسار عبد الناصر وإننى أرى أن كثيرًا من الحركات البرجوازية الصغيرة استطاعت أن تقيم حزبها الماركسى المتقدم وحينما قلنا إن حركة عبد الناصر يمكن أن تتطور إلى حركة اشتراكية علمية سخر الكثيرون منا مع أن ذلك كان قد تحقق واقعيًا فى بعض التجارب مثل حركة القوميين العرب التى بدأت حركة برجوازية صغيرة قبل أن تتحول إلى الماركسية اللبنانية وكذلك الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والجبهة القومية فى اليمن .

نقد ذاتى !!

أنا شخصيًا لى نقد أوجهه لنفسى أولاً ولزملائى من بعدى حين قبلنا الاندماج الكامل مع جهاز عبد الناصر سنة ١٩٦٤ وقد ذكرت ذلك بصراحة فى مقدمة كتابى «الوعى والوعى الزائف» . ومصدر الخطأ الذى أعترف به الآن أننا تصورنا أنه بجهاز الدولة نستطيع أن نعجل بالتغييرات الثورية وأننا لو عمقنا وعممنا القوى الديمقراطية فى جهاز الدولة لاستطعنا أن نسرع بهذه التغييرات .

هذا هو الخطأ الكبير الذى وقعنا فيه وهو نفس الخطأ الذى وقع فى تجربة الاتحاد السوفيتى نفسه إذ كان لابد من تفتيت جهاز الدولة وتنمية السلطة الشعبية الجديدة جذريًا فى مقابل ذلك .

ولكن الذى حدث هو أننا استسهلنا استخدام ما هو جاهز لدينا جهاز الدولة الموجود والذى كان به بعض العناصر التقدمية فى محيط الصراع ضد الاستعمار العالمى وقد رأينا أن ندخل فيه كما هو ونخوض به ومعه غمار صراعاتنا المحلية والدولية وكان ذلك تعبيرًا عن قصر النظر الذى كنا نعانى منه وتعبيرًا عن ضعفنا التنظيمى . وعن استغراقنا فى أفكار ذات طابع نظرى .

لقد كنا منذ أيام سعد زغلول من دعاة التحالف والحوار مع بقية الأحزاب الوطنية الأخرى حتى بعد أن ألغى سعد زغلول الحزب الشيوعى الأول بناء على دعوة انجليزية ظل الحزب الشيوعى السرى يدعو إلى التحالف مع الوفد باعتباره حزبًا للبرجوازية الصغيرة حتى بعد أن أعلن ستالين أن الأحزاب البرجوازية ألقت بعلم الوطنية وأصبحت أحزابًا خائنة رفض الشيوعيون المصريون تلك الدعوة وظلوا ينادون بالتنسيق والتحالف مع الوفد باعتباره حزبًا وطنيًا على عكس رأى ستالين فيه كحزب برجوازى خائن .

وحين وصلنا الميثاق داخل السجن أخضعناه للتحليل العميق فاعتبره بعضنا انتقالاً إلى رأسمالية الدولة الاحتكارية بينما اعتبره البعض الآخر وأنا منهم خطوة متقدمة بل يتضمن بعض المفاهيم الاشتراكية غير العلمية التى من الممكن بالتجربة والتحالف أن تصبح علمية .

ومن هنا بدأ الحوار مع عبد الناصر لكى ننخرط فى طليعة الاشتراكية بناء على دعوته وقبلنا الدخول بناء على أسس وضعناها منها التمسك بالرؤية المادية الجدلية للوجود والعالم والاشتراكية العلمية خاصة وأن الميثاق كان قد تضمن هذا التعبير بالذات صراحة وقد أرسلت بناء على اتفاق مع الرفاق فى السجن رسالة إلى أنور السادات أذكره فيها بحوارنا القديم حول ضرورة حل الحزب والدخول كأفراد فى تنظيم الاتحاد القومى الذى صدر قرار بحله وتحول إلى الاتحاد الاشتراكى وقلت له إن الظرف الآن قد اختلف بعد التحولات الاشتراكية وصدر الميثاق وأننا مستعدون الآن أكثر من أى وقت مضى للانخراط فى الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى .

ثم جاء أيريك رولو الصحفى الفرنسى الشهير وأجرى حوارًا مع عبد الناصر أعلن فيه عن قرب موعد الإفراج عن الشيوعيين وبداية التعاون معهم وأذكر أن بريما كوف رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى الآن[1] كان مراسلاً لصحيفة البرافددا السوفيتية فى القاهرة وكتب مقالاً فيها بعنوان «أفراح على النيل » أفراح بمناسبة الانتهاء من بناء السد العالى وأفراح بالإفراج عن الشيوعيين .

---

(١) فى نهاية القرن الماضى .

وعقد مؤتمر لم أحضره وقتها وقرر فيه المجتمعون من القيادات الشيوعية حل الحزب على أن يبقى متجسدًا فى شخص كمال عبد الحليم باعتباره سكرتيرًا عامًا للحزب وكانت صيغته غريبة أن يتجسد الحزب بأكمله فى شخص واحد حتى لو كان كمال عبد الحليم بكل تاريخه النضالى ولكن الهدف منها كما قيل وقتها هو أن يدعو كمال عبد الحليم إلى قيام الحزب من جديد إذا حدث أى شىء يخل باتفاقنا مع السلطة .

وتم عمل لجنة من الشيوعيين ولجنة من الاتحاد الاشتراكى لعقد حلقات من الحوار حول صيغة للاتفاق بين الطرفين وكان ممثل السلطة فى ذلك الوقت أحمد حمروش وأحمد فؤاد وهما من الرفاق فى مجموعة «حدتو» التى التحمت مبكرًا بتنظيمات السلطة وقد دخلت أنا فى إحدى لجان التنظيم الطليعى التى يرأسها سامى شرف - مدير مكتب عبد الناصر - وكان معى حسن فؤاد .

والتحقت بالعمل فى جريدة المصور مع أحمد بهاء الدين كما كلفت بالعمل فى أمانة التثقيف بالتنظيم الطليعى وكانت تضم عددًا من الأدباء والمثقفين والفنانين ومن مكتبى بمجلس قيادة الثورة بالجزيرة بدأت الإعداد لإصدار مجلة التنظيم لمخاطبة فئة العمال والفلاحين والمثقفين .

وقد انشغلنا فى الأحداث اليومية التى كانت متلاحقة فى ذلك الوقت وكنا نشعر أننا فى سباق مع الزمن لتعويض ما فاتنا ونحن فى السجن .

وذات يوم اتصل بى ثروت عكاشة وتحدث معى بشأن الإشراف على الهيئة العامة للكتاب وبالفعل انتقلت إلى هناك لإصدار مجلة «الكاتب العربى» وفكرت فى أول مشروع للأعمال الكاملة فى العالم العربى فأصدرت الأعمال الكاملة ليوسف إدريس ولويس عوض وغيرهما .

عصر الازدهار

ثم اتصل بى ثروت عكاشة بعد فترة ليحدثنى بشأن الإشراف على مؤسسة المسرح مع الدكتور على الراعى وبالتعاون بيننا حدثت نهضة المسرح فى الستينيات التى لا يزال يعتبرها النقاد والدارسون أزهى فترات المسرح المصرى فظهر نعمان عاشور والفريد فرج

وميخائيل رومان ولطفى الخولى ويوسف إدريس وغيرهم وأذكر أن خلافًا وقع بينى وبين رشاد رشدى حول مسرحيته التى قدمها لى بعنوان «اتفرج يا سلام» فطلبت مقابلته فى بيتى وقلت له إننى أتحدث معك كناقد وزميل وليس كرئيس مجلس إدارة مؤسسة المسرح فقد قرأت المسرحية وأرى فيها بعض العيوب الفنية الواضحة وأرى أن تعالجها قبل عرضها فوافق رشاد رشدى على ذلك ثم فوجئت بحملة شعواء يشنها على رشاد رشدى وعدد من أصدقائه مثل أنيس منصور وغيره من هذا الرجل الذى هو أنا والذى يحاول أن يفرض رأيه على الفنانين ويتدخل فى أعمالهم مستغلاً منصبه فى موقع المسئولية فاتصلت برشاد رشدى وقلت له أنت حر فى عملك والمسئولية فى النهاية تقع عليك وحدك وأذكر أن النقاد قالوا بعد عرض المسرحية ما قلته أنا له قبل عرضها وقد فشلت جماهيريًا ونقديًا للأسباب التى ذكرتها له .

والغريب أن المسرحية كانت تتحدث عن بطش الحكام والقهر والطغيان والمقاومة التى يبديها الشعب فى مواجهة هذا الحاكم وهى بذلك تتعرض لنظام فى مصر فى عهد عبد الناصر ولكنها خرجت من مؤسسة المسرح التى تملكها الدولة ولم يعترض عليها أحد أو يطالب بإيقافها فكانت أحد النماذج الكثيرة التى وافقنا على عرضها دليلاً على ديمقراطيتنا رغم اختلافى معها نقديًا ورغم تعريض تلك الأعمال المسرحية بنظام الحكم فى مصر آنذاك .

الغسيل الوسخ

بل إننى وأنا رئيس لمؤسسة المسرح سمحت بعرض مسرحية «حبل الغسيل» للكاتب الحضرمى الأصل على أحمد باكثير وفيها تعريض وهجوم شديد على الماركسيين حين صورهم فى شكل «شلة» تسيطر على المسرح والصحف وأجهزة الإعلام وهى شلة ملحدة غير أخلاقية وانتهازية إلى آخر «الغسيل الوسخ» الذى أراد باكثير أن ينشره على «حبل الغسيل» فى مسرحيته .

وقد كتبت فى مجلة المصور نقدًا للمسرحية ورد على باكثير فى المصور أيضًا مدافعًا عن وجهة نظرهالتى لم يقف أحد من «الشلة» إياها فى طريق عرضها سواء على المسرح أو فى الصحف التى ادعى أنها واقعة تحت سيطرة الشيوعيين والملحدين فقد نشرت المسرحية كاملة فى إحدى المجلات وعرضت علىمسرح الدولة بأموال مؤسسة المسرح

التى يقول إنها تحت السيطرة الشيوعية وكتب فى المجلات ليدافع عنها ولم يمنعه أحد من «الشلة» من إبداء دفاعه كما لم يمنعه أحد من قبل من القيام بهجومه .

ليس ذلك فقط بل إن فى مسرحية «الشبعانين» التى ألفها الإذاعى الشهير أحمد سعيد المدير الأسبق لإذاعة صوت العرب كثيرًا من الهجوم على الشيوعية والشيوعيين ويصفهم بالانتهازية والدعارة والخسة والانحطاط إلى آخر تلك الأوصاف التى حفلت بها مسرحيته وقد ذهبت بنفسى لأحيى أحمد سعيد بعد عرضها على المسرح فقال لى إنه ظن أننا سنقاطع المسرحية ونحول دون عرضها فقلت له إنك لم تفهم حقيقة الشيوعيين ومدى ديمقراطيتهم .

هذه نماذج لبعض كتاب اليمين الذين ملأوا الدنيا صراخًا بأن الشيوعيين يسيطرون على المسرح والصحف وأجهزة الإعلام ولا يسمحون لهم بإبداء وجهة نظرهم التى تخالف رأينا وهناك الكثير لغير هؤلاء من كتاب اليمن الذين سمحنا لهم بعرض أعمالهم رغم أنها أعمال ركيكة من الناحية الفنية ولا ترقى إلى مستوى العمل الأول لأى كاتب مبتدىء ورغم ذلك أى رغم توافر مثل هذه الحجة والمبرر لرفضها إلا أننا قبلنا لهم عملاً وأقاموا الدنيا وأقعدوها شاكين مر الشكوى من الاضطهاد الذى يتعرضون له على أيدينا فما بالنا إذا كنا قد منعنا عملاً من أعمالهم رغم ركاكته وهبوطه من الناحية الفنية ؟

والذى يعود إلى قائمة الأعمال المسرحية التى عرضت أثناء رئاستى لمؤسسة المسرح سيجد أغلبها لكتاب اليمين أو مؤلفين غير ماركسيين بل كانوا وكانت أعمالهم ضد الماركسية والشيوعية ولكنى سمحت بعرضها رغم أنها كانت أيضًا تهاجم نظام الدولة .

« 9 »

كانت مشكلاتى مع اليمين وكتابه مشكلات متوقعة وطبيعية أما مشكلاتى مع كتاب اليسار فهى التى كانت غير طبيعية أو هكذا كان يجب أن تكون وخاصة مع عبد الرحمن الشرقاوى الذى كنت معه على صداقة عميقة منذ الأربعينيات .

والذى حدث أن الشرقاوى عرض مسرحية «الفتى مهران» والتى تتضمن الكثير من الهجوم على عبد الناصر شخصيًا وتتهمه بالانعزال عن الجماهير .. كما كانت المسرحية تتضمن دعوة «للسلطان» أن يعيد جيشه من البلاد البعيدة . وكانت القوات المصرية فى ذلك الوقت تحارب فى اليمن .

والأكثر من ذلك أن المسرحية تتضمن همزًا ولمزًا بالشيوعيين الذين تخلوا عن مبادئهم – هكذا قال – وتحالفوا مع عبد الناصر .

فكتبت فى مجلة «المصور» مقالاً . قلت فيه : إننى لم أشعر بالأسى والحزن والضيق إلا وأنا أشهد هذه المسرحية رغم مالها من فضائل أولها نقد نظام الحكم نقدًا صريحًا وبلا مواربة . والفضيلة الثانية أن مؤلفها عبد الرحمن الشرقاوى قد نجح فى توظيف الشعر فيها توظيفًا دراميًا . متجاوزًا بذلك كثيرًا من مؤلفى المسرح الشعرى بما فيهم أحمد شوقى نفسه .. أما الفضيلة الثالثة فإنها تدافع عن السلام .. ولكن الدفاع عن السلام كان يجب التفريق فيه بين الحروب العدوانية والحرب التحريرية . فقوات «السلطان» التى تحارب فى الأرض البعيدة ويطالب الشرقاوى بإعادتها إلى الوطن إنما ذهبت إلى هناك لتحارب من أجل السلام والتقدم . ولم تكن تحارب من أجل العدوان والبغى .

كان عبد الرحمن الشرقاوى فى حزب «الطليعة» الشيوعى .. وقد وافق هو أيضًا على حل الحزب والدخول فى التنظيم الطليعى ، ورغم ذلك فإنه يهاجم فى مسرحيته الشيوعيين الذين وافقوا على حل الحزب وانتقلوا إلى المساومة بدلاً من المقاومة !

حملة عواء !!

وبعد أن نشر مقالى الذى انتقد فيه مسرحية الفتى مهران فى مجلة «المصور» فإذا بحملة شعواء يشنها على الشرقاوى وآخرون .. وهنا تدخل شعراوى جمعة وزير الداخلية فى ذلك الوقت .. وكاد يصدر أمرًا بوقف المسرحية لولا رجائى له بألا يفعلها حتى لا نتهم بالحجر على حرية الرأى والتعدى على الديمقراطية .

وبالفعل لم يصدر شعراوى جمعة قراره بوقف مسرحية الفتى مهران كما لم يصدر أوامره بوقف مسرحية «الدخان» تأليف ميخائيل رومان التى تعج بنقد النظام السياسى والاجتماعى فى مصر .

وهكذا نرى أن كتاب اليسار الذين اتهمهم كتاب اليمين بالسيطرةوالسيادة على مسرح الستينيات لم يكونوا مسيطرين لأنهم كانوا يؤيدون النظام السياسى ويقومون بالدعاية له كأبواق .. بل كانوا مسيطرين وسائدين رغم نقدهم للنظام وتعريضهم به وهجومهم عليه . هجومًا تجاوز حدود التلميح والرمز فى أغلب الأحيان ، ولا يدل ذلك إلا على أنهم سيطروا وسادوا فى تلك الفترة لاعتبارات فنية أكثر من الاعتبارات السياسية .

يمين ويسار !!

هذا بالإضافة إلى أن كتاب اليمين أنفسهم لم يكونوا أقل سيطرة وسيادة . فجميع مسرحيات توفيق الحكيم وسعد الدين وهبة ورشاد رشدى وباكثير وأباظة وغيرهم أخذت طريقها إلى العرض على المسارح وهى مسارح الدولة التى كانت تحابى الشيوعيين كما قالوا على حسابهم .. ولم يذكر أحد من هؤلاء أن مسرحية لكاتب من كتاب اليمين قد منعت من العرض . رغم كل ما فيها من نقد للنظام بل رغم ما فيها من ضعف فنى وركاكة فى التناول .

وفى أثناء ذلك فوجئت بالرئيس عبد الناصر يستدعينى لمقابلته .. فى مكتبه .. وحين ذهبت إليه أخبرنى أنه قد اختارنى لتولى الإدارة فى مؤسسة أخبار اليوم وطلب منى - مازحًا - ألا أحولها إلى «برافدا» أخرى .. !!

كان محمد حسنين هيكل هو الذى يتولى الإشراف على أخبار اليوم إلى جانب رئاسته لمؤسسة الأهرام .. وقال لى عبد الناصر أن هيكل تعب من العمل فى المؤسستين معًا .

وفى أخبار اليوم بدأت رحلة المعاناة مع الجميع . فلم تكد تمر ثلاثة أشهر على عملى فى رئاسة المؤسسة حتى اكتشف وزير الاقتصاد - فجأة - أن الدار مدينة بأكثر من ثلاثمائة ألف جنيه . وأنه يريد أن يوقف الدعم الذى تقدمه الدولة لمجلة آخر ساعة وكتاب اليوم !!

وبدأت العمل باجتماع عام لكل العاملين فى الدار وقلت لهم «أنا لى لون .. ولونى هو لون تراب مصر» وطلبت منهم أن يكون تعاملنا على هذا الأساس .

وشرعت فورًا فى تأسيس لجنة التنظيم الطليعى بالمؤسسة . وقربت منى الشباب التقدمى مثل عادل حسين وفيليب جلاب وسعيد حبيب وغيرهم من الباب الواعد فى ذلك الوقت . وجرت انتخابات الإدارة وفاز فيها كل القائمة التى رشحتها .

وكان الدور الثانى من مبنى الأخبار القديم مخصصًا لعلى ومصطفى أمين . ففتحته قاعة للاجتماعات والمحاضرات والاحتفالات .

كما تنازلت عن ثلث مرتبى شهريًا كجائزة لأفضل عامل سواء فى التحرير أو التوزيع أو المطابع . وكانت هناك لجنة للجائزة تسمى الأفضل عملاً خلال الشهر ليفوز صاحبها بالجائزة .

وسافرت إلى ألمانيا الشرقية للتعاقد على شراء ماكينات طباعة جديدة بدلاً من الماكينات المتهالكة التى وجدتها بالدار .

وبدأت تشع فى المؤسسة كلها وبين كل العاملين فيها روح جديدة من الحماسة والنشاط .. رغم العراقيل التى كان يضعها فى طريقنا مدير عام المؤسسة . الذى كان مواليًا لمصطفى وعلى أمين .

وقد تقدمت إلى جمال عبد الناصر بعد فترة من عملى بأخبار اليوم بكل أوراقى التى تخص ميزانية الدار ، وسير العمل فيها ، وكانت كلها تدل على أننا نسير بنجاح مضطرد يومًا بعد يوم .

مؤامرة .. وإقالة !!

وفى ذات يوم فوجئت بحضور السادات إلى مكتبى بالأخبار . وسألنى «إيه يا سيدى انت مزعل الناس منك ليه ؟» .

فهمت من سؤاله أنه يقصد الخلافات بينى وبين مدير عام الدار . فحكيت له عن العراقيل التى يضعها فى طريق سير العمل . والمؤامرات التى يحيكها ضدى وضد العاملين بالمؤسسة . فطلب السادات منى أن استدعيه لأواجهه بأقوالى . وحين حضر الرجل وواجهته أمام السادات . لم يجد ما يقوله وأطرق ناظرًا إلى الأرض .

وبعد أن خرج الرجل فوجئت بطلب السادات لى بأن أبق فى بيتى ريثما تهدأ الأمور قليلاً .

نزلت من مكتبى بأخبار اليوم لأركب سيارة أجرة رافضًا أن أستقل السيارة المخصصة لى من المؤسسة كرئيس لمجلس إدارتها .

وفى اليوم التالى فوجئت بمقال لمحمد حسنين هيكل فى الأهرام يكتب فيه عنى .. وعن على صبرى .

كان على صبرى قادمًا من موسكو مع زوجته . حاملاً معه بعض المشتريات التى جلبها معه من روسيا لابنته التى كان يستعد لزواجها . وأراد أن يدخل بتلك المشتريات دون أن يدفع الجمارك المقررة عليها !

أما أنا فكتب هيكل عن أن الأخبار فى عهدى هبط توزيعها كما هبط دخل الإعلانات فيها . وشاعت الخلافات والصراعات بين العاملين بها . ولم يكن ذلك صحيحًا بطبيعة الحال . فمازلت أحتفظ بكل الوثائق والأوراق التى تدل على ذلك .

السبب الحقيقى !!

ولكن السبب الحقيقى وراء إقالتى من أخبار اليوم هو أن الرفاق من زملائى القدامى بالحزب الشيوعى قد أعادوا بناء الحزب من جديد . وقد شعرت أجهزة السلطة بذلك حتى أن شعراوى جمعة - وزير الداخلية آنذاك - اتصل بى ذات يوم وقال لى « قل لزكى مراد مايعملش الحاجات اللى بيعملها !» .

لقد كنت على علم بكل شيء . بل إنهم كانوا يطلبون رأيى فى بعض المسائل الخلافية فيما بينهم . وكانوا يعرضون علىّ المنشورات التى كانوا يكتبونها قبل توزيعها لإبداء رأيى فيها وكانت تلك المنشورات تصدر فى بداية الأمر بدون توقيع الحزب الشيوعى المصرى فاعترضت على ذلك وطلبت منهم أن يوقعوا عليها باسم الحزب .

والحقيقة إنه فى أعقاب النكسة - وقوع الهزيمة - كان علينا أن نعيد بناء الحزب من جديد كأداة نضالية ضد كثير من السلبيات والنقائص التى أدت إلى وقوع الهزيمة .. ولم أكن بموافقتى على إعادة الحزب أشعر بالخيانة لعبد الناصر . بل كانت لدينا القناعة كاملة . بأننا أعدناه لمساندة عبد الناصر فى الخروج من الأزمة التى وضعته فيها الهزيمة العسكرية .

أما الكلام عن الخسائر فى أخبار اليوم - كما ذكر هيكل - فلم يكن صحيحًا . خاصة أن الذى وضع التقرير المالى الذى قدمته لجمال عبد الناصر وقبل إقالتى بأسبوع كانوا ثلاثة خبراء من الجهاز المركزى للمحاسبات طلبت من السيد حسين الشافعى أن يمدنى بهم لضمان حيادهم .

وبقيت فى البيت لأكتشف بعد فترة أن خلافًا قد وقع بين مصر والاتحاد السوفيتى بسبب بعض المسائل الخاصة بتوريد السلاح إلى مصر فقرر عبد الناصر أن يضغط على الروس بإقالتى من أخبار اليوم وإقالة على صبرى من رئاسة الوزارة متصورين أننى أحد رجال السوفيت فى مصر !!

وبعد فترة من بقائى فى البيت اتصلوا بى ليخبرونى بإعادتى رئيسًا لمؤسسة المسرح بالإضافة إلى عملى فى الإشراف على النشرة الداخلية للتنظيم الطليعى . «طليعة الاشتراكيين» .

وذات يوم .. وبينما أنا فى مكتبى بمجلس قيادة الثورة أفاجأ بخبر وفاة عبد الناصر الذى أشك فى أنه قتل ولدى ما يؤكد ذلك .

كنت أنا والدكتور حمدى السيد وسامى الدروبى الذى كان سفيرًا لسوريا فى مصر . ثلاثة أصدقاء مرتبطين بعبد الناصر بعلاقة خاصة .

ذهبت إلى منزل حمدى السيد فور سماعى بخبر وفاة عبد الناصر فلم أجده وانتظرت فى بيته حتى يعود وحين عاد الدكتور حمدى السيد وجدته شخصًا آخر غير الذى عرفته منذ

سنوات وجهه أصفر . وفى غاية الارتباك والفزع . فسألته عن حقيقة خبر وفاة عبد الناصر فقال الدكتور حمدى متشككًا فى وفاته إنه كان قد اشترى له سيارة إسعاف مزودة بأحدث الأجهزة الطبية التى تناسب حالته الصحية وأن هذه السيارة تقف أمام بيته دائمًا وفيها طبيب مقيم طوال الوقت بل إنها تسافر معه فى الطائرة إلى أية دولة يزورها وعند حدوث الأزمة كما قال حمدى السيد لم يقم أحد باستدعاء السيارة أو الطبيب المقيم بها . كما لم يستدع حمدى السيد نفسه إلا بعد التأكد من حدوث الوفاة بساعة كاملة !!

وظل حمدى السيد يردد أن عبد الناصر مات قتلاً ، حتى أسكته شعراوى جمعة بالأمر !

المهم أن بعد جنازة عبد الناصر بدأنا نعد لانتقال السلطة وكان المفروض أن على صبرى هو الذى سيتولى رئاسة الجمهورية وليس أنور السادات . هكذا كان الرأى بالإجماع فى داخل التنظيم الطليعى . لأن على صبرى كان أكثرهم ثقافة . وأكثرهم دراية بأمور الحكم . فكان رجل دولة من الطراز الأول .

وأذكر أننى أنا الذى كتبت البيان الذى ألقاه السادات بعنوان «بيان إلى الناس» نحدد فيه الخطوط العريضة والرئيسية لسياسة مصر بعد وفاة عبد الناصر ، وقلت فيه أن عبد الناصر مات شخصًا . ولكنه لم يمت فكرًا أو منهجًا وإننا سوف نسير على طريق عبد الناصر . وبفكر عبد الناصر .

« 10 »

لم تكن الأمور بينى وبين السادات على ما يرام منذ بداية توليه الرئاسة خلفًا لعبد الناصر .. فقد كنت أشعر فى قرارة نفسى - ومعى - أغلبية التنظيم الطليعى أن هناك من هو أجدر منه فى تولى هذا المنصب وهو على صبرى .

وفى أول اجتماع للجنة المركزية التى كنت عضوًا فيها بالانتخاب علن حى بولاق بعد نجاحى فى الانتخابات التى جرت بأخبار اليوم . طرح السادات موضوع مد مهلة وقف إطلاق النار التى نصت عليها مبادرة روجرز الشهيرة .. وكانت على وشك الانتهاء بعد أسبوع تقريبًا ..

كانت تلك المهلة ثلاثة أشهر وأراد السادات ، أن يمدها ثلاثة أشهر أخرى بحجة أننا لم نغط منطقة الصعيد والسد العالى بشبكة الصواريخ والدفاعات الجوية وأن مد المهلة سيعطينا الفرصة لعمل ذلك .. فقمت لأعارض السادات فى فكرته .. وكنت المعارض الوحيد .. حين قلت موضحًا فكرتى . إن إنهاء مبادرة روجرز لا يعنى أننا سنحارب غدًا . بل إن إنهاءها سيعجل العمل فى مد شبكة الصواريخ فى منطقة الصعيد لأننا سنكون فى هذه الحالة تحت ضغط المعركة واشتباكاتها اليومية .

رفض السادات اقتراحى بحجة أن هناك تفصيلات عسكرية كثيرة لا أعلم عنها شيئًا . وعند التصويت تمت الموافقة على اقتراح السادات بمد المهلة لفترة أخرى .

وبينما كنت أحضر مؤتمرًا للمسرح فى دمشق علمت باستبعاد على صبرى من منصب نائب رئيس الجمهورية الذى كان السادات قد عينه فيه منذ عدة شهور فقطعت زيارتى لسوريا وعدت إلى القاهرة فورًا . لأقابل ياسر عرفات فى المطار بالصدفة .. فتجاذبنا أطراف الحوار حول موضوع على صبرى ثم عدت إلى مكتبى لأطلب مقابلة سامى شرف .

طمأننى سامى شرف قائلاً إنه سأل السادات عن السبب فقال له إنها مسألة شخصية ولا علاقة لها بالسياسة العامة للدولة ؟ أو خط عبد الناصر الذى أكد أننا مستمرون بالسير فيه .

اجتمعت أمانة التنظيم الطليعى التى كنت عضوًا فيها مع سامى شرف وقررنا إيفاد شعراوى جمعة إلى أنور السادات ليطلب منه وقف قراره باستبعاد ثلاثين من طليعة العمال منهم فريد عبد الكريم لأنه لم يكن راضيًا عنهم . وأن يطلب إليه أيضًا البدء فورًا فى حرب التحرير بعد انتهاء المهلة الثانية التى حددتها مبادرة روجرز .

وبينما كان شعراوى يستعد لمقابلة السادات فإذا به يصدر قرارًا بإقالة شعراوى جمعة من وزارة الداخلية وتعيين ممدوح سالم .

وفى نفس الليلة التى صدر فيها القرار وكان موعد إذاعة برنامج تليفزيونى كنت أقدمه عقب نشرة أخبار التاسعة مساء اسمه «وجه الحقيقة» وفى البرنامج حذرت من التراجع عن خط عبد الناصر الذى نرى مؤشرات كثيرة عليه فى هذه الأونة وهاجمت السادات تلميحًا .

الاعتقال ثانية

وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبىبمجلس قيادة الثورة بالجزيرة ، فإذا بوزير الثقافة يتصل بى ليخبرنى بنبأ إقالتى من الإشراف على مجلة الطليعة .

وبعد ساعات من وصولى إلى البيت فوجئت بالقبض على وحين ذهبت إلى معتقل القلعة وجدت كل أعضاء طليعة الاشتراكيين هناك .

كانت التهمة الموجهة إلى هى الخيانة العظمى .. وقلب نظام الحكم .. وفى الدفاع عن نفسى اتهمت السادات بالخيانة العظمى لأفكار ومبادئ الثورة والمبادئ التى أرساها جمال عبد الناصر .. وقلت إن السادات هو الذى قام بقلب نظام الحكم ولسنا نحن وبدلاً من أن أكون متهمًا حولت السادات إلى متهم .

وكانت المفاجأة التى فجرتها فى التحقيقات هى وجود اتصالات سرية بين السادات وموشى ديان أعلن عنها السادات فى مكالمة تليفونية مع إحدى الشخصيات «رجل مهم جدًا الأن» يقول فيهاأنه يريد أن يرسل إلى موشى ديان برسالة يتمنى له فيها أن يصبح رئيسًا للوزراء حتى يمكنه التفاهم معه حول إنهاء المشكلة بين مصر وإسرائيل .

وقال السادات فى مكالماته التليفونية مع هذا الشخص إنه يقترح مندوب إسرائيل الدائم فى الأمم المتحدة ليحمل رسالته إلى موشى ديان .

وقد سارع السادات بحرق الشريط المسجل عليه تلك المكالمة . ضمن شرائط كثيرة قام بحرقها فى مشهد مسرحى علىأنها شرائط تحمل مكالمات تليفونية لبعض المواطنين قامت «مراكز القوى» بتسجيلها فى عمليات تجسس على المواطنين وانتهاك حرماتهم وحرياتهم !!

وبينما كنت فى زنزانتى بمعتقل القلعة . فإذا بى أسمع من أحد الميكروفونات التى كانت تبث برامج الإذاعة فىمنطقة القلعة أنه تم قتل «الشفيع» القيادة العمالية المعروفة فى السودان . ومعه عبد الخالق المحجوب . إثر فشل انقلاب هاشم العطا ضد حكم الرئيس نميرى فى أوائل السبعينيات .

وقد هزتنى هذه الأخبار من أعماقى . فتوجست شرًا لنا . إذ أن مصيرنا واحد . وأدركت أنها هجمة جديدة على الشيوعيين والطليعة الاشتراكية فى كل من مصر والسودان . وكان التنسيق بينهما وقتها فى أوجه .

إفراج ولكن

ولكنى فوجئت فى صباح اليوم التالى بمن يفتح باب الزنزانة ويسلمنى بعض المتعلقات التى دخلت بها . ويطلب منى أن أذهب إلى بيتنا .

كنت الوحيد تقريبًا الذى تم الإفراج عنه . وبقى الآخرون انتظارًا لمحاكمتهم . وقد دهشت لهذا وأخذت أبحث عن سبب لذلك فلم أجد سوى المفاجأة التى فجرتها فى التحقيقات معى وكانت عن الاتصالات السرية بين السادات وموشى ديان .

وحينما قدم زملائى الطليعيون للمحاكمة . طلبنى سعد زايد الذى كان محافظًا للقاهرة بالشهادة فى التهمة الموجهة إليه وهى التحريض على قتل السادات والانقلاب عليه.

وحين ذهبت للمثول أمام المحكمة . لم أدافع عن سعد زايد بل دافعت عنهم جميعًا . وأدنت السادات ومواقفه المتخاذلة حيال معركة تحرير الأرض . وعرجت مرة أخرى على اتصالاته السرية مع إسرائيل .

وبعد الانتهاء من شهادتى . هممت بالخروج فإذا بالمحامين يطلبون منى الانتظار . ثم وجهوا كلامهم للقاضى قائلين له إن هذا الرجل كان متهمًا فى القضية وتم التحقيق معه . ولكن بحثنا عن أوراق التحقيقات معه فلم نعثر لها على أثر . فأين ذهبت ؟!

إن الإجابة عن هذا السؤال كانت معروفة سلفًا لقد سرقت أوراق التحقيق معى واستبعدت من ملفات القضية نظرًا لما تحتويه من «أسرار عليا» لا ينبغى لأحد الاطلاع عليها !!

بقيت فى المنزل فترة بلا عمل حتى جاءتنى دعوة من جامعة «أوكسفورد» لتدريس فيهافسافرت إلى انجلترا لأعمل أستاذًا زائرًا فى تدريس الفكر العربى المعاصر .

ثم اتصل بى «جاك بيرك» يدعونى إلى باريس لإلقاء بعض المحاضرات فى الكولدج دى فرانس .

كامب دافيد

وفى أثناء ذلك قام السادات بمبادرته الشهيرة لزيارة القدس والتى أعقبها التوقيع على اتفاقية كامب دافيد ..

فشرعنا فورًا فى إقامة ما أسميناه «بالجبهة الوطنية التقدمية » من جميع الأحزاب التقدمية فى الوطن العربى للوقوف فى وجه كامب دافيد والحد من أثارها المدمرة على وحدة الصف العربى فى مواجهة إسرائيل .

وأذكر أنه تمت الدعوة لعقد مؤتمر لوزراء الثقافة العرب فى دمشق . وسافرت أنا باعتبارى ممثلاً للثقافة المصرية . وفى هذا المؤتمر تصديت بشدة لدعوة البعض بمقاطعة مصر ثقافيًا .. منادين بحظر دخول الكتب والأفلام المصرية . ومنع أبنائهم من التعليم فى مصر إلى آخر تلك الدعوات التى كانت تعنى مقاطعة مصر شعبيًا وليس رسميًا فقط .

فقمت معارضًا تلك الدعوات السخيفة مؤكدًا أن كامب دافيد لا تمثل الشعب المصرى ، الذى يقاومها ومن غير المعقول أن نقاوم المقاومة فى مصر .. وإلا كنا نضعفها وعلينا أن نفرق بين الحكومة والشعب فى مصر فى ذلك الوقت .

وقد حاول الأخوة العراقيون فى ذلك الوقت أن يقيموا اتحادًا للكتاب العرب بديلاً عن اتحاد الكتاب الذى يرأسه ثروت أباظة فرفضت تلك الدعوة أيضًا رغم اختلافى الشديد مع ثروت أباظة لأننا نقاطع بذلك الكتاب المصريين الذين لم توافق أغلبيتهم على كامب دافيد أو التطبيع مع إسرائيل .

وفى تلك الأثناء أصدرنا مجلة اليسار العربى من باريس . لتكون منبرًا لكل الكتاب العرب فى مختلف أقطارهم كما اسسنا جبهة الصمود والتصدى . والتى تعرضت لبعض محاولات السيطرة عليها من بعض الحكومات العربية خاصة الحكومة العراقية فرفضنا ذلك بشدة وخرجت العراق من الجبهة وقد أبلغنا بعد ذلك أن حياتى أنا وزميلى «ميشيل كامل» معرضة للخطر وبقيت عامين كاملين أتوخى الحذر فى تحركاتى خوفًا من الاغتيال ..!!

ثم بدأ الاتصال بالفريق سعد الدين الشاذلى الذى كان يقيم فى الجزائر فى ذلك الوقت بعد أن استقال كسفير لمصر فى انجلترا احتجاجًا على كامب دافيد .

وقد تم الاتفاق مع الشاذلى على قيام الجبهة الوطنية المصرية برئاسته لأنه كان أكثرنا مقامًا وحربًا ضد إسرائيل . فأوكلنا إليه رئاسة الجبهة التى شكلناها من الحزب الشيوعى المصرى . والناصريين . وبعض المستقلين .. وقد حرصنا على عدم التعامل مع أية قوى خارجية وقصرنا تعاملنا مع الحكومات والقوى التقدمية فى البلاد العربية . لأننا كنا نمثل أحزابنا وتياراتنا العامة داخل مصر ولم نكن سوى ممثلين لها فى الخارج هكذا اعتبرنا أنفسنا فى ذلك الوقت .

وقد استغرقنى العمل فى الجبهة بالإضافة إلى عملى فى تدريس الفلسفة العربية الإسلامية وتاريخ الفكر العربى المعاصر .. والنقد العربى فى جامعات وكليات باريس .. وأذكر أنه لم يكن يمر أسبوع دون القيام بمظاهرات تندد بالسادات تشارك فيها كل القوى والجالياتالعربية والإسلامية فى فرنسا ومختلف بلاد غرب أوروبا .. واستمرنا فى ذلك إلى أن أغتيل السادات .

عصر جديد

وبعد وفاة السادات جاء الرئيس مبارك ليصدر أمرًا بالإفراج عن المعتقلين السياسيين .. والعفو عن المطلوبين فى بعض القضايا من الموجودين خارج مصر فشعرنا بأن هناك جوًا

جديداً يتسم بالديموقراطية والمصالحة الوطنية .. فقدمت استقالتى من الجامعة بفرنسا وقررت العودة إلى مصر . رغم حرمانى من ممارسة حقوقى السياسية والمدنية بمقتضى «قانون العيب» الذى كان السادات قد أصدره ليحاصر به معارضيه فى الداخل والخارج .

وكانت زوجتى السيدة سميرة الكيلانى وابنتى شهرت قد وضعتا تحت الحراسة كما صودرت سيارتى ماركة «رمسيس» التى كان أصدقائى يسمونها «الحاجة» كل ذلك تطبيقاً لقانون «العيب»!

وقد اتصلت بالدكتور رفعت السعيد وخالد محيى الدين لأبلغهما بقرار عودى إلى مصر وموعد وصولى إليها . ليقوموا بإبلاغ السلطات بذلك حتى لا يظن أحد أننى أدخل خلسة فتتم معاملتى بطريقة غير لائقة .

وفعلاً عدت إلى مصر وفى اليوم التالى توجهت إلى مكتب النائب العام لأضع نفسى تحت أمره .. فطلب منى أن أعود إلى البيت حتى يحين موعد طلبى لإغلاق الملف .

فى هذه الأثناء رفضت الدخول فى حزب التجمع .. لأنى كنت شيوعيًا واضحًا .. بينما كان برنامج حزب التجمع اشتراكيًا ديموقراطيًا صحيح أنه يضم بعض الشيوعيين أو من كانوا شيوعيين . ولكنهم انضموا كأفراد يناضلون من أجل تطبيق برنامج تجمعى أو جبهوى وهو يختلف عن البرنامج الشيوعى الذى أؤمن به .

وقد رأيت أننا فى حاجة إلى مجلة جديدة يكون شعارها من أجل العقلانية والديمقراطية والإبداع فأصدرت مجلة «قضايا فكرية» وهى كتاب غير دورى تحايلاً على قانون المطبوعات الذى يستلزم استخراج رخصة لإصدار أية دورية أو مطبوعة منتظمة الصدور ولم يكن فى استطاعتى ذلك لأننى كنت لا أزال محرومًا من ممارسة حقوقى السياسية حسب المدة التى قررها القانون بينما عادت إلى حقوقى المدنية لانقضاء المدة .

وفى أول عدد أصدرته من «قضايا فكرية» كان بعنوان «من يحكم مصر» وفيه تحليلات عميقة بأقلام عدد من الكتاب والمفكرين عن مؤسسات الحكم فى مصر وكيف تحكم ولمصلحة من ثم توالت الأعداد عن مصر بين الرأسمالية والاشتراكية . وأزمة الرأسمالية فى مصر .. ووضع الطبقة العاملة فى مصر والإسلام السياسى .. إلى آخر تلك الموضوعات والقضايا التى تجرى على الساحة السياسية فى مصر .

وفى تحليلنا النهائى للوضع القائم فى مصر الآن إنه نظام مناهض ومعاكس تمامًا للنظام السياسى الذى كان سائدًا فى عهد عبد الناصر صحيح أن نظام عبد الناصر كان نظامًا «لا ديموقراطيًا» ولكنه لم يكن ضد الديموقراطية لأن الديموقراطية كانت متحققة فى بعض الظواهر مثل تمثيل الفلاحين والعمال فى المجالس المنتخبة والتشريعية .. وفى الإصلاح الزراعى والمكاسب العمالية التى تحققت .

تغييرات ولكن !

وقد حضرت بعض الاجتماعات فى عام ١٩٦٩ التى تدرس إنشاء المعاهد الاشتراكية فى مختلف الأقاليم المصرية . وتغيير الميثاق بعد مرور عشر سنوات على صدوره وكان الاتجاه السائد وقتها تأميم قطاع المقاولات كلية . وتأميم التجارة الخارجية بكاملها .

وحل الاتحاد الاشتراكى ليكون البديل فى ثلاثة أحزاب تعبر عن اتجاهات اليمين والوسط واليسار وقد شارك ضياء الدين داود فى تلك الاجتماعات التى تمهد لكل تلك التغييرات الجذرية .. ولكن القدر لم يمهل عبد الناصر ليقوم بها .

الأخيرة ..

حتى نهاية الأربعينيات من هذا القرن لم أكن قد أصبحت ماركسيًا ، بل إننى لم أكن أميل للماركسية . وإن كان لى كثير من الأصدقاء الماركسيين . فقد كنت مثاليًا أميل تمجيد الذات على حساب الموضوع . حتى أننى شرعت فى الإعداد لرسالة الماجستير عن الأساس الذاتى للعلم لأقوض فكرة قيام العلم على أساس موضوعى . ولكنى حين قرأت لينين . تغيرت أفكارى كلها .

وأخذت أميل شيئًا فشيئًا نحو الماركسية حتى أصبحت ماركسيًا بكليتى . ويمكننى القول أننى قد دخلت الماركسية من بوابة الفلسفة .

هذا من الناحية الثقافية والفكرية ، أما من الناحية السياسية فقد كنت وطنيًا بدون حزب . كنت أميل لبعض أفكار الحزب الوطنى . كما أننى كنت قريبًا من بعض أفكار مصر الفتاة أما حزب الوفد فقد كنت أنتمى إليه عاطفيًا دون أن تربطنى به علاقة تنظيمية . ولكن ذلك كان فى مرحلة مبكرة من حياتى . انتهت بتوقيع حزب الوفد على معاهدة ١٩٣٦ التى لم أكن أرى أنها معاهدة الشرف والاستقلال كما أسماها مصطفى النحاس فى ذلك الوقت .

مؤامرة يهودية !

وحين بدأت حرب فلسطين وانتشرت دعوة الجهاد فى مصر ولدخول الحرب فى مواجهة اليهود لإنقاذ فلسطين كنت سعيدًا جدًا بتلك الروح القومية التى تأججت فى نفوس المصريين فى ذلك الوقت .

وحين صدر قرار التقسيم حدث انقسام فى الحركة الشيوعية فى مصر . فهناك من يقبل بقرار القسيم بين العرب واليهود مثل «حدتو» وهناك من يرفضها مثل «الطليعة» والغريب أن الطليعة التى رفضت التقسيم كان بها ثلاثة من اليهود وهم أحمد صادق سعد (الذى أشهر إسلامه) ويوسف درويش والدويك . ورغم أننى لم أكن قد أصبحت شيوعيًا بعد

إلا أننى كنت مع من رفض التقسيم من الشيوعيين معتبرًا أن قرار التقسيم جزء من مؤامرة صهيونية استعمارية ضد الأمة العربية وعرب فلسطين .

كان هنرى كوريل زعيم حزب «حدتو» الشيوعى من غلاة المدافعين عن قرار التقسيم الذى يؤدى إلى قيام دولة إسرائيل ولكنى كنت أرى أن دولة فلسطين الموحدة يمكن أن تتسع للعرب واليهود والمسلمين على السواء فى نظام ديموقراطى يشمل الجميع . ولهذا كنت ضد قرار التقسيم الذى لم يكن له مبرر فى رأيى غير المؤامرة .

كان كوريل يبرر تأييده لقيام دولة إسرائيل بمبررات ذات صبغة ماركسية فكان يقول « يارفيك » أن قيام إسرائيل يعنى قيام أكبر قوة بروليتارية فى الشرق الأوسط . مما يقوى البروليتارية فى البلاد العربية فى صراعها الطبقى الذى تخوضه فى مجتمعاتها . وبالتالى فإن بروليتارية إسرائيل سيساعد البروليتارية العربية فى الوصول إلى السلطة وانتزاعها من الحكومات الرجعية !!

هذا كان مبرر هنرى كوريل ومعه - بكل أسف - كثير من الشيوعيين العرب الذين كانوا يرون فى دعوة «الجهاد» التى انتشرت فى كل البلاد العربية مجرد دعوة يمينية لإجهاض دولة تقوم على حكم البروليتارية وهى إسرائيل !

وبطبيعة الحال كنت ضد هذا التفسير المخل بالتعاليم الماركسية . وكنت ولا أزال أرى أنها قضية وطنية ، تتعلق بإزالة دولة موجودة وإيجاد دولة لم تكن ولا ينبغى لها أن توجد وإزاحة شعب بكامله وإحلال شعب آخر مكانه .

لم يكن هناك مبرر لذلك كله . فاليهود خاصة فى مصر وبقية البلاد العربية - لم يكونوا يعانون مشكلة يستلزم حلها إقامة دولة تكون قاصرة عليهم وحدهم . فجميع المشكلات التى يعانون منها فى ذلك الوقت كان يشاركهم المعاناة فيها كل المسلمين والمسيحيين . فلم تكن معاناتهم لأنهم يهود بل كانت لأنهم مواطنون مثلهم فى ذلك مثل المسلمين والمسيحيين .

وفى مصر بالذات كان لنا العديد من الأصدقاء اليهود ولم نكن نعرف - ولا يهمنا أن نعرف - إذا كانوا يهودًا أو غير ذلك - كل ما كنا نعرفه أنهم مصريون . ومواطنون وجيران أو أصدقاء لنا .

وأذكر أن الإخوان المسلمين لعبوا دورًا خطيرًا فى إحداث الفتنة بين اليهود والمسلمين فكانوا يطاردونهم فى الشارع . ويلاحقونهم بالأذى والضرر حتى هاجر معظمهم مضطرًا إما إلى إسرائيل أو للبلاد الأوروبية الأخرى ، خوفًا على حياته .

لم يكن معظم هؤلاء اليهود صهيونيًا . ولم يكن مع قيام دولة إسرائيل فى فلسطين ولكن نحن الذين دفعناهم دفعًا ليؤيدوا إسرائيل أو يهاجروا إليها .

كان اليهود يعيشون فى مصر فى مناخ ديموقراطى . كانت لهم أنديتهم – الميكادو – وصحفهم وتجمعاتهم ومعابدهم . ولم يكن أحد ضدهم بل وشارك بعضهم فى الحياة السياسية فى مصر حتى وصل إلى عضوية مجلس النواب أو المشاركة فى الوزارة دون أن يعارض أحد ذلك بحجة أنهم يهود ولا يصح أن يكونوا هناك .

لم تكن هناك أية حساسية يبديها المصريون تجاه اليهود لأنهم يهود . ولهذا حين عارض حزب «الطليعة» الشيوعى تقسيم فلسطين بين العرب واليهود . رغم قياداته اليهودية لم نندهش – فى ذلك لاوقت – من رفض بعض اليهود لقيام دولة يهودية فى فلسطين . وإن كنت أرى الآن أن اليهود الذين عارضوا قيام دولة يهودية فى فلسطين كانوا يؤدون دورهم فى المسرحية بإتقان فكلا الفريقين كان مع قيام الدولة الإسرائيلية وإن اختلفت وسيلته فى التأيد لقيامها .

وأذكر أنه فى أحد المؤتمرات التى كنت أحضرها أنا وخالد محيى الدين فى باريس حول القضية الفلسطينية . جاءنا هنرى كوريل وطلب منا بإلحاح ألا نثير قضية الصهيونية فى المؤتمر !

إنهم يقولون بدولة يعيش فيها الفلسطينيون واليهود معًا . فلماذا إذن قامت إسرائيل، لقد كانت هناك دولة بالفعل اسمها فلسطين وكان يعيش فيها اليهود والفلسطينيون معًا . فلماذا جاء اليهود من كل بقاع الأرض ليزيحوا الفلسطينيين من أرضهم. ويغيروا اسم الدولة ؟

هناك كتاب لماركس اسمه «المسألة اليهودية» لا يعترف به الماركسيون . ويكرهه الشيوعيون . فى هذا الكتاب يقول ماركس أنه لا يقصد بالمسألة اليهودية الدين اليهودى،

ولكن يقصد بها العقلية اليهودية ذات الطابع التجارى والاستغلال والاحتكارى الذى يمثلها «شيلوك» عند شكسبير وأن الرأسمالية بدأت بمساندة الفكر البروتستانتى المسيحى . وأن اليهودية سرعان ماركبت الرأسمالية وأصبحت الرأسمالية هى اليهودية واليهودية هى الرأسمالية .

ويرى ماركس أن حل المسألة اليهودية بالدخول فى القومية . وأن يصبح اليهودى يحمل جنسية البلد الذى يولد فيه لا أن تكون جنسيته ودينه هو اليهودية .

وهكذا تنبأ ماركس بقيام الفكرة الصهيونية ويعارضها قبل أن تولد ويعارض أيضًا اعتبار اليهودية جنسية أو قومية وبالتالى فهو يرفض قيام دولة يهودية تقوم على الدين .

وكان لينين أيضًا ضد الوحدة اليهودية أو الصهيونية ، وكانت هناك محاولة لقيام الحزب الديمقراطى الروسى . وكان هناك حزب لليهود اسمه «البوند» أى الوحدة .. أراد اليهود أن يدخلوا به كحزب عمالى فى الحزب الاشتراكى الديموقراطى الروسى . فرفض لينين دخول «البوند» لأنه يقوم على أساس دينى . وقال لينين أن الوحدة بين البروليتارية يجب أن تقوم على أساس طبقى وليس دينيًا . فالعمال هم العمال بصرف النظر عن ديانتهم . وأن الحل الوحيد لليهود هو الاندماج فى الأحزاب على أسسا طبقى وليس على أساس دينى .

وهذه هى النظرة الماركسية لاصحيحة للمسألة اليهودية ولينين له رأى واضح فى الحركة الصهيونية حين قال إنها حركة رجعية فى جوهرها ولا يصح أن تكون لها دولة مستقلة . ولهذا أقول أن أى ماركسى حقيقى يجب أن يكون ضد دولة إسرائيل باعتبار أنها دولة تقوم على أسس دينى وطائفى وهذا ضد الماركسية اللينينية على طول الخط . ومن هنا أقول بخطأ ووهم أى حزب ماركسى أو شيوعى إسرائيلى . فإما أن تكون شيوعيًا وإما أن تكون إسرائيليًا . ولكن أن تكون إسرائيليًا وشيوعيًا فى نفس الوقت فهذا خطأ فى المنهج والرؤية لا يصح أن يقع فيه أى مؤمن حقيقى بالماركسية أو الشيوعية .

ولذا فإننى أقطع بخطأ الشيوعيين العرب الذين يرحبون بفكرة الحوار مع اليسار الإسرائيلى أو الشيوعيين الإسرائيليين . والتنسيق معهم للضغط علىاليمين الإسرائيلى كما يدعون فهذا - كما أرى - من قبيل الخطأ فى التحليل والرؤية التى لا تقوم هنا على المنهج الماركسى الصحيح .

خطأ .. ووهم !!

وأعود فأقول إننى كنت من الذين رفضوا تقسيم فلسطين فى ذلك الوقت بين العرب واليهود ولكننى أقول الأن وبعد مرور كل تلك السنوات بتجاربها وأحداثها لو أن العرب قبلوا بفكرة التقسيم وأخذوا دولتهم وكافحوا انطلاقًا منها لاختلف الأمر كثيرًا عما هو عليه الآن ولكان العرب أفضل مما هم عليه حاليًا خاصة وأن الأنظمة العربية فى ذلك الوقت لعبت دورًا خطيرًا فى وقف القتال ضد إسرائيل وأن أكثر من خان من العرب كانوا الأكثر رفضًا لفكرة التقسيم !!

لقد رفض الشيوعيون منذ البداية فكرة قيام دولة إسرائيل حتى أن مجلة «الحساب» الناطقة بلسان الحزب الشيوعى المصرى فى العشرينيات انتقدت سفر أحمد لطفى السيد وطه حسين للمشاركة فى الاحتفال الذى أقامه اليهود فى حيفا بمناسبة افتتاح أول جامعة عبرية هناك . وقد رفض الفلسطينيون قيام تلك الجامعة باعتبارها إحدى مؤسسات الدولة العبرية التى كان ينادى بها اليهود تأسيسًا على وعد بلفور .

وقد رفضت مرارًا الالتقاء بأى عضو فى «راكاح» خاصة حينما كان على رأسه «ميكونيس» ذو الميول الصهيونية الواضحة ولكن بعد أن أطاحوا بهذا الرجل الصهيونى .. دخل كثيرون من العرب فى الحزب الشيوعى فى إسرائيل ومنهم أميل حبيبى وتوفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم وغيرهم .

وقد التقيت ببعضهم فى باريس . وحين التقيت بهم التقيت بهم كعرب وليس كإسرائيليين أو شيوعيين . وكانوا يقولون لنا أنهم يدافعون عن التراث العربى والثقافة العربية فى إسرائيل . وأن انتماءهم للحزب الشيوعى فى إسرائيل يضعف من عنصرية وصهيونية الإسرائيليين من زملائهم بالحزب .

وهناك جناح «تروتسكوى» فى الحزب الشيوعى فى إسرائيل وقد قابلت بعضهم حين كنت فى لندن وقد أكدوا لى أنهم مع قيام دولة ديموقراطية واحدة تتسع للعرب واليهود معًا فى إطار ديموقراطى يقوم على أساس المواطنة وليس على ساس الدين .

لست مع التطبيع مع إسرائيل . ولكن مع التطبيع مع الفلسطينيين فى إسرائيل . فإيطاليا تشترى المنتجات الفلسطينية ونحن نرفض ذلك بحجة أنها منتجات قادمة من إسرائيل .. إننا بذلك نحاصر الفلسطينيين وندفعهم دفعًا للوقوع فى براثن اليهود .

وفى رأيى أن الضعف العربى انعكس بدوره على الوضع فى فلسطين . فأضعف النضال الفلسطينى وأصابه باليأس . بالإضافة أن التركيبة الاجتماعية فى فلسطين . وعلى قمتها عمال الزراعات الصغيرة . تجعلهم فى الوضع الذى نراهم فيه عليه الآن .

اعترافات شيخ الشيوعيين
محمود أمين العالم

ألقاب كثيرة أطلقها عليه أصدقاؤه .. وتلاميذه ومريدوه فهو «العميد» وهو «العمدة» وهو «المعلم» وهو «العالم» ولا شك فى جدارته بكل تلك الألقاب التى حصل عليها عبر مسيرة طويلة من النضال ، بطول عمره المديد ، حمل فيها تاريخًا مليئًا بالتجارب ، وغنيًا بالخبرات على كاهله وفى رأسه وفى يده كانت مفاتيح المحراب الأحمر الذى يعرف دهاليزه وممراته وسراديبه السرية .. والسحرية .

وفى هذه الحلقات ، يفتح لنا «العالم» خزائن أسراره ، ليخرج لنا منها ما لم يخرجه أمام كل المحققين الذين واجهوه وواجههم فى قضايا تتعلق « بالأمن » ولكن أيًا منها لم يكن يتعلق « بالأمانة »!

فقد كان « العالم » طوال تاريخه – الأمين مع نفسه ، ومع غيره .. وأن رآه خصومه – ودائمًا – غير مأمون ..!!

Mouyn

MADBULI BOOKSHOP
مكتبة مدبولى
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421
٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة – ت : ٥٧٥٦٤٢١